البلاغة القرآنية

في آيات سجود التلاوة

للّهدراسة بلاغية تحليليةللّه

إعداد

د/ محمد مصطفى محمود ليلة

مدرس البلاغة والنقد في كلية الدراسات

الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة

جامعة الأزهـــر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب تبياناً وتبصرة لأولى الألباب، والصلاة والسلام على من أرسله ربه بالبيان، وعلمه القرآن، وآتاه جوامع الكلم وأسرار الفرقان، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

وبعد،،

فالقرآن الكريم هو المعين الذي لا ينضب، والمنهل العذب الذي لا يفنى، ومنبع العلم الذي لا يخلق على كثرة الرد، وهو كتاب الله الخالد، ودستور الأمة ومنهاجها الأقوم، لا تزيغ به الألسنة ولا تلتبس به الأهواء.

ولقد كانت وستظل لغته المعجزة موردا عذبا للدارسين، ينهلون من بلاغته، ويغوصون في أسراره، تقربا وطاعة لله تعالى، امتثالا لقوله سبحانه: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) [ص: ٢٩].

ولا ريب أن كل باحث يستخرج من بلاغته بقدر ما يفتح الله عليه، فلا يحيط بمكنون أسراره وإعجازه وبيانه إلا من أنزله سبحانه وتعالى. وكم سألت الله تعالى أن يجعلني من خدام كتابه الكريم، فوفقني عز وجل لاختيار هذا الموضوع "البلاغة القرآنية في آيات سجود التلاوة"؛ لأدرسه دراسة بلاغية تحليلية.

* خطة البحث:

وقد انتظم البحث في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة.

أما المقدمة: ففيها أهميته، وخطته، وأهم الدراسات السابقة، والمنهج الذي تسير عليه الدراسة.

التمهيد: سجود التلاوة فى القرآن الكريم.

المبحث الأول: الأسلوب الخبري في آيات سجود التلاوة.

المبحث الثاني: الأسلوب الإنشائي في آيات سجود التلاوة.

وأما الخاتمة: ففيها أهم نتائج البحث، ثم أعقبتها بفهرس للمراجع وآخر لموضوعات البحث.

*** الدراسات السابقة:**

أما عن أهم الدراسات السابقة فبيانها في الآتي:

١-دراسة بعنوان:" سجود التلاوة وأحكامه" للدكتور/ صالح عبد الله اللاحم، وقد تناول فيها حكم سجود التلاوة، وعدد السجدات ومواضعها، وأحكام السجود.

٢-دراسة بعنوان:" سجود التلاوة معانيه وأحكامه" لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهو قريب في دراسته من الدراسة الأولى إلا أنه أكثر من بيان الأحكام المتعلقة بالسجود.

٣-دراسة بعنوان :"السجود والركوع في القرآن الكريم" دراسة موضوعية، وهي دراسة أعدها الباحث/أحمد رفعت حمادة فوده وذلك لنيل درجة العالمية"الدكتوراة" في التفسير وعلوم القرآن من كلية أصول الدين بجامعة الأزهر، وهى دراسة تختص بجانب التفسير الموضوعي لآيات السجود والركوع في القرآن الكريم.

٤-دراسة بعنوان:" آيات السجود في القرآن الكريم" دراسة بلاغية، وهي دراسة تقدم بها الباحث/ سليمان خليل سليمان وذلك لنيل درجة التخصص "الماجستير" في البلاغة والنقد من كلية اللغة العربية بالقاهرة جامعة الأزهر. وقد تتبع الباحث مادة السجود وتصريفاتها في القرآن الكريم، ومن ثم جاء بحثه على ثلاثة فصول: الأول: لآيات السجود من العقلاء. والثاني: لآيات السجود من غير

العقلاء. والثالث: للمشترك بينهما. وقد اعتمد منهج الاستقراء والتحليل إلا أنه غلب عليه الجانب التفسيري ، وفاته كثير من بيان الألوان البلاغية، وأسرارها، وخصائصها. ولذا كان موضوع هذا البحث:" السياق القرآني في آيات سجود التلاوة" لإبراز أسرارها البلاغية، وعلاقتها بسياق السورة التي وردت فيها، وما امتازت به من خصائص فنية.

*** منهج البحث:**

اتبعت في هذا البحث منهجين: (المنهج الاستقرائي، والمنهج التحليلي)، حيث قمت بجمع آيات سجود التلاوة التي أجمع عليها جمهور العلماء، ثم عرضت لكل آية منها بذكرها، وبيان علاقتها بسياق السورة التي وردت فيها، ثم التحليل البلاغي وذلك ببيان أسرار النظم وبلاغته، دراسة كلية تهتم بالسياق وتآزر الألوان البلاغية المختلفة في بيان المعنى المراد.

والله تعالى أسأل أن أكون قد وفقت في اختيار الموضوع ودراسته، وسلامة نتائجه، وأن يغفر لي الزلات، ويتجاوز عن العثرات، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن ينفعني به، ويرزقني فهم كتابه والوقوف على أسراره، إنه ولى ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

دكتور / محمد مصطفى محمود

ليلة

التمهيد

سجود التلاوة فى القرآن الكريم

حثنا الحق – سبحانه – على تلاوة القرآن الكريم، ووعد من قام بحقه بالأجر العظيم والثواب الجزيل، وهناك سنن وآداب لمن أراد تلاوته – وهي كثيرة – منها "سجود التلاوة" فيسن لقارئ القرآن إذا مرّ بآية فيها سجدة من سجدات القرآن أن يسجد، لما صح عن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– أنه قرأ يوم الجمعة على المنبر سورة النحل حتى إذا جاء السجدة نزل فسجد وسجد الناس حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأها حتى إذا جاء السجدة قال: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا نَمُرُّ بِالسُّجُودِ فَمَنْ سَجَدَ فَقَدْ أَصَابَ وَمَنْ لَمْ يَسْجُدْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَسْجُدْ عُمَرُ "[1] "والإضافة في قولك: " سجود التلاوة " من قبيل إضافة المسبب إلى السبب، فإن قلت: التلاوة سبب في حق التالي والسماع سبب في حق السامع، فكان ينبغي أن يقال سجود التلاوة والسماع؟ وقد أجيب عن ذلك: بأن الإجماع منعقد على كون التلاوة سببا فى السجود، واختلفوا: في سببية السماع، فقال بعضهم: ليس السماع سببًا فى السجود، ولذلك اقتصرت إضافة السجدة إلى التلاوة دون السماع، أو يقال: إن التلاوة أصل في السجود، لأنه إذا لم توجد لم يوجد السماع، فكان ذكرها مشتملًا على السماع من وجه، فاكتفي به."[2] وقد اختلف العلماء في حكم سجود التلاوة للتالي[3]، فمنهم من قال بأنه واجب مطلقا – في الصلاة وخارجها – ومنهم من قال: واجب في الصلاة مسنون

---

١ – ينظر: شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، باب ما جاء في سجود القرآن،:٢/٤٢.

٢ – ينظر البناية شرح الهداية لبدر الدين العينى :٢/٦٥٤، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان ،ط١ ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م.بتصرف يسير.

٣ – ينظر المبسوط للسرخسي :٢/٣ وما بعدها،ط دار المعرفة – بيروت ١٤١٤هـ–١٩٩٣م. ومجموع فتاوى ابن تيمية:٢٣/١٣٩، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج: ١/٤٢٧،دار الكتب العلمية، ط١ ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م،وبداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد :١/٢٢٣،ط دار الحديث – القاهرة،١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤ م.

خارجها، ومنهم من قال بأنه مسنون مطلقا. وكذا اختلفوا في حكمه للمستمع[1] – الذي يقصد الاستماع للقراءة سواء أكان في الصلاة أم في غيرها– علي قولين: فمنهم من قال بأنه واجب، ومنهم من قال بأنه سنة. وبالنسبة للسامع على أقوال[2]: منها الوجوب، ومنها السُّنِّية، ومنها أنه لا يتأكد في حقه كالمستمع، ومنها أنه غير مشروع.

عدد السجدات ومحلها:

الذى عليه جمهور العلماء أنها أربع عشرة سجدة : فى سورة الأعراف عند نهاية السورة الآية ٢٠٦، وفى سورة الرعد عند نهاية الآية ١٥، وفى سورة النحل عند نهاية الآية ٥٠، وفى سورة الإسراء عند نهاية الآية ١٠٩، وفى سورة مريم عند نهاية الآية ٥٨، وفى سورة الحج سجدتان عند نهاية الآية ١٨، وعند نهاية الآية ٧٧، وفى سورة الفرقان عند نهاية الآية ٦٠، وفى سورة النمل عند نهاية الآية ٢٦، وفى سورة «الم تنزيل السجدة» عند نهاية الآية ١٥، وفى سورة «حم السجدة» عند نهاية الآية ١٥، وفى سورة «حم السجدة» فصلت عند نهاية الآية ٣٨، وفى سورة النجم عند نهاية الآية ٦٢، وفى سورة «إذا السماء انشقت» عند نهاية الآية ٢١، وفى سورة «اقرأ باسم ربك» عند نهاية السورة الآية ١٩.

وأما سجدة سورة «ص» فمستحبة، وليست من عزائم السجود أي: من متأكداته، فقد ثبت فى صحيح البخارى عن ابن عباس– رضى الله عنهما– قال: ص ليست من عزائم السجود، وقد رأيت النبى صلّى الله عليه وسلم سجد فيها» [3].

وفي هذا البحث سأسير على ما ذهب إليه جمهور العلماء من أنها أربع عشرة سجدة.

---

١ – ينظر المبسوط للسرخسي :٤/٢ وما بعدها،ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج: ٤٢٨/١ وما بعدها.

٢ – ينظر المرجع السابق نفسه، و المغني لابن قدامة: ٤٤٥/١ وما بعدها الناشر: مكتبة القاهرة،١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م.

٣ – الحديث رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة ص ، حديث رقم ٤٨٠٦، ٤٨٠٧.وينظر الموسوعة القرآنية المتخصصة: ٤٣٠/١ ،الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر،١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م.

والناظر في آيات سجود التلاوة في القرآن الكريم يرى أنها ما بين خبر عن أهل السجود ومدح لهم، أو أمر بالسجود وذم على تركه، وعلى هذا فإن البحث سيسير في مبحثين أولهما:سيتناول آيات سجود التلاوة ذات الطابع الخبري. والثاني:. سيتناول آيات سجود التلاوة ذات الطابع الإنشائي.

المبحث الأول
الأسلوب الخبري في آيات سجود التلاوة

أولا: قوله تعالى في سورة الأعراف: (إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ) الآية:٢٠٦.

(أ) علاقة الآية بسياق السورة:

لما عظم الله شأن القرآن، وأمر بالاستماع والإنصات عند قراءته للتأمل والتدبر رجاء رحمته وكرمه والإشارة إلى أنه لا يكاد يقوم بهذا الأمر حق قيامه غيره – صلى الله عليه وسلم – فأمره بذكره على كل حال لتتحقق المراقبة مع القرب منه – سبحانه– وكذا في جميع الأوقات ، جاء في هذه الآية معللا الأمر بالمراقبة الدالة على أعظم الخضوع بأنها وظيفة المقربين ، فقال:" "إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ....." فنزلت هذه الآية منزلة العلة للأمر بالذكر.[1]

(ب) التحليل البلاغي:

قوله: " إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ" المراد بهم الملائكة، وأكد الخبر بـ "إن" للاهتمام به ، وليس المراد بتأكيده دفع تردد أو إنكار ، لأن المخاطب – وهو النبي ﷺ– منزه عن أن يتردد في خبر الله – تعالى – ، فحرف التوكيد في مثل هذا المقام يفيد تعليل الأمر بالذكر في الآية السابقة ، فهذا التعليل بمنزلة أن يقال: اذكر ربك لأن الذكر هو شأن قبيلك ، فأكد الخبر بـ"إن " لبيان أهمية الذكر، وذَكَّره بالملائكة ليتشبه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم، ووجه العدول عن لفظ (الملائكة) إلى التعريف بالموصولية "الذين" ما تؤذن به الصلة "عند ربك" من رفعة منزلتهم ، فيتذرع بذلك إلى إيجاد المنافسة في التخلق بأحوالهم، و" عند " مستعمل مجازاً في رفعة المقدار والتشريف والقرب في المكانة لا في المكان، ويحتمل أن يكون قوله تعالي:" عِندَ رَبِّكَ" من قبيل الحقيقة، ويكون فيه إيجاز

---

١ – ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:٨/٢١٣.

بحذف المضاف والتقدير: عند عرش ربك ،وحذف للإسراع إلي بيان منزلتهم وفضلهم وقربهم من الله – جل وعلا – وذلك لطاعتهم.

ولما أمر تعالى بالذكر ورغب في المواظبة عليه ذكر من شأنهم ذلك فأخبر عنهم بأخبار ثلاثة ، الأول : نفي الاستكبار عن عبادته ، وذلك هو إظهار العبودية ، ونفي الاستكبار هو الموجب للطاعات كما أن الاستكبار هو الموجب للعصيان ؛ لأن المستكبر يرى لنفسه مزية فيمنعه ذلك من الطاعة ، الثاني : إثبات التسبيح منهم له تعالى وهو التنزيه والتطهير عن جميع ما لا يليق بذاته المقدسة ، والثالث : السجود له[١]

وفي قوله:" لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ " تعريض بالمشركين وأنهم على النقيض من أحوال الملائكة المقربين، فخليق بهم أن يكونوا بعداء عن منازل الرفعة.[٢]

وفيه تسلية للنبىّ ﷺ فى تكذيب الكفار إياه، وذلك حتى لا ييأس ويحزن على تكذيبهم واستكبارهم، فهم يعدون السجود لله – تعالى – حطة وضعة لا تحتمل ولا تليق بهم وبمنزلتهم ، وكأن الله – تعالى– يقول له: إذا كان هؤلاء لم يمتثلوا لما أمروا به فإني مستغنٍ عنهم ، ولي عباد مكرمون من شأنهم طاعتي وعبادتى ، فطرتهم عليها لا يعصوني ما أمرتهم، ويفعلون ما آمرهم به.

ومضارعية الصيغة في قوله:" لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ " تدل على تجدد واستمرار عبوديتهم وطاعتهم له – سبحانه – في كل ما يأمرهم به، وينزهونه عن كل ما لا يليق بعظمته وكبريائه من اتخاذ الند والشريك ، كما يفعل هؤلاء الذين اتخذوا من دونه شفعاء أندادا لله يحبونهم كحب الله ويعبدونهم مع الله.

" ولما كانت العبادة ناشئة عن انتفاء الاستكبار ، وكانت على قسمين : عبادة قلبية وعبادة جسمانية ذكرهما ، فالقلبية : تنزيه الله تعالى عن كل سوء ، والجسمانية : السجود وهو الحال التي يكون العبد فيها أقرب إلى الله تعالى"[٣] فقال:" وَلَهُ يَسْجُدُونَ" أي: يخصونه بالعبادة، وقوله:" يَسْجُدُونَ"استعارة للانقياد والخضوع له وحده ، وفيه تعريض

١ – ينظر تفسير البحر المحيط: ٥/٢٦٤.
٢ – التحرير والتنوير: ٩/٢٤٣.
٣ – البحر المحيط:٥/٢٦٤.

بالمشركين الذين لا يخصونه بالسجود والعبادة ، وفيه إيحاء باستغناء الله عنهم ، وكأن الحق يخاطب رسوله ﷺ ويقول له إذا كان هؤلاء المشركون قد استنكفوا واستكبروا عن عبادتى فإن لي عباداً مكرمين من شأنهم تخصيصي بالعبادة.

وقدّم الجار والمجرور"لَهُ" لإفادة القصر، فالملائكة يخصونه – سبحانه – بالسجود ، ولا يشركون معه غيره، وأفاد التقديم – أيضاً – مراعاة الفاصلة.

وبعد أن ذكر (صاحب البحر المحيط) أن التقديم يؤذن بالاختصاص قال:" والذي يظهر أنه إنما قدم المجرور ليقع الفعل فاصلة ، فأخره لذلك ليناسب ما قبله من رءوس الآي"[1] غير أنه لا مانع من إفادة التقديم الاختصاص ومراعاة الفاصلة .

ومضارعية الصيغة " يَسْجُدُونَ " تدل على تجدد واستمرار عبادتهم وسجودهم لله – تعالى– وفي ذلك حض وحث على التشبه والتخلق بأخلاق الملائكة في العبادة فيجب أن يكون لكل مؤمن أسوة حسنة بخواص ملائكته ، وأقرب المقربين عنده تبارك اسمه وتعالى جده .

وقد أراد النبي ﷺ أن يبادر بالتشبه بهم تحقيقاً للمقصد الذي سيق هذا الخبر لأجله .

ويلاحظ مجيئ السجود مقروناً بالتسبيح في صورة المضارعة" وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ " فهم دائموالعبادة له سبحانه، ولا يشركون معه أحداً.

ثانيا: قوله تعالى في سورة الرعد: "وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ" الآية:١٥.

(أ) علاقة الآية بسياق السورة:

السورة تتحدث عن العقيدة وقضاياها..(توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، وتوحيد الدينونة لله وحده في الدنيا والآخرة جميعاً ، ومن ثم قضية الوحي وقضية البعث..) والإطار العام الذي تعرض فيه قضاياها هو الكون ، وهذا الكون كله بكل ما فيه من عجائب فيه براهين هذه القضايا وآياتها في الإدراك البشري البصير المفتوح. وهذه السورة تطوف بالقلب البشري في مجالات وآفاق وآماد وأعماق وتعرض عليه الكون كله في شتى مجالاته

١ – المرجع السابق نفسه.

الأخاذة، إنه جو المشاهد الطبيعية المتقابلة: من سماء وأرض. وشمس وقمر. وليل ونهار. وشخوص وظلال. وجبال راسية وأنهار جارية. وزبد ذاهب وماء باق. وقطع من الأرض متجاورات مختلفات. ونخيل صنوان وغير صنوان.. ومن ثم تطرد هذه التقابلات في كل المعاني وكل الحركات وكل المصائر في السورة، فيتناسق التقابل المعنوي في السورة مع التقابلات الحسية، وتتسق في الجو العام.وتأتي هذه الآية لتبين صورة من صور هذا التقابل : السماوات تقابل الأرض، والطواعية تقابل الكراهية، والغدو يقابل الآصال وذلك في صورة تدل على العبودية لله تعالى وهي السجود والانقياد له سبحانه . [1]

(ب) التحليل البلاغي:

قوله: "وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" أي يخضع وينقاد له وحده – سبحانه – فكما اختصّ الحق – سبحانه – بالدعوة الحقة اختص بالسجود الذي هو الخضوع والانقياد ، فيكون في قوله:" يَسْجُدُ " استعارة للانقياد المذكور، أو مجازا مرسلا لاستعماله في لازم معناه، لأن الانقياد مطلقا، لازم للسجود.وقدّم الجار والمجرور" لِلَّهِ" لإفادة القصر الإضافي، وهو يحتمل الإفراد حيث يخاطب به من يعتقد سجود من في السموات والأرض لله ولغيره من المخلوقات ، فبين الحق – سبحانه – بهذا القصر أن جميع من في السموات والأرض يسجدون له وحده فيخصونه بالسجود ولا يشركون معه غيره، ويجوز أن يكون القصر مرادا به القلب حيث خوطب به من يعتقد سجود من فى السموات والأرض لغير الله، فلا يسجدون له سبحانه، فبين لهم أن جميع من فيهما يخضعون وينقادون له سبحانه، وقد بيّن ذلك في صورة موجزة مختصرة، وهي صورة القصر.

ووضع الظاهر "لِلَّهِ" موضع ضميره " لَهُ " وذلك في قوله: " وَلِلَّهِ" لما فى لفظ الجلالة من تربية العظمة والمهابة والجلال.

ومضارعية الصيغة " يَسْجُدُ" تدل على تجدد واستمرار خضوعهم وانقيادهم لله وحده، فالسياق يدل على ذلك.

---

١ – ينظر في ظلال القرآن: ٤/٢٠٤٠ وما بعدها.

و" مَنْ " فى قوله : "مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" المراد بها: الملائكة والثقلين كما يقتضيه ظاهر التعبير بمن، وتخصيص انقياد العقلاء مع كون غيرهم أيضا كذلك لأنهم العمدة وانقيادهم دليل انقياد غيرهم ، وقيل: المراد ما يشمل أولئك وغيرهم، والتعبير بمن للتغليب. فمن– عام أريد به مخصوص إذ يخرج من ذلك من لا يسجد، وقيل: هو عام لسائر أنواع العقلاء والمراد– بيسجد– يجب أن يسجد لكن عبر عن الوجوب بالوقوع مبالغة. [١]

والمطابقة بين" السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" تدل على خضوع وانقياد كل من فيهما لله سبحانه ، فهو خالقهم ورازقهم، وهو وحده المستحق العبادة.

وقوله:" طَوْعًا وَكَرْهًا"أي :طائعين وكارهين أو انقياد طوعٍ وكُرهٍ أو حالَ طوعٍ وكره فإن خضوعَ الكل لعظمة الله عز وجل وانقيادَهم لإحداث ما أراده فيهم من أحكام التكوين والإعدام شاءوا أو أبَوا وعدمُ مداخلةِ حكمِ غيره بل غيرِ حكمِه تعالى في تلك الشئون مما لا يخفى على أحد، ف "طَوْعاً وَكَرْهاً " نصب على الحال، وجوز أن يكون النصب على العلة(مفعولا لأجله) فالكره بمعنى الإكراه، وقيل: النصب على المفعولية المطلقة أي سجود طوع وكره.[٢]

وقوله:" طَوْعًا وَكَرْهًا"مجاز عن الشدّة والرخاء، والمقصود استواء حالتيهم في أمر السجود، والانقياد فالطوع بالنسبة إلى الملائكة والمؤمنين، وهو على حقيقته (أي: ما يقابل الانقياد)، والكره بالنسبة إلى الكفار في حالة الشدّة والمراد به الاضطرار والإلجاء فيشمل المنافقين المصلين خيفة السيف، والظاهر أنه بمنزلة الكره لا كره حقيقي.[٣]

وفي تفسير ابن عباس: المراد بقوله:" يَسْجُدُ " أي: يصلي ويعبد، وبقوله:" مَن فِي السَّمَاوَات " من الملائكة، وبقوله:" وَالْأَرْض " من المؤمنين، وبذلك يكون في قوله: " طَوْعًا وَكَرْهًا " لف ونشر مرتب ، حيث جاء قوله:" طَوْعًا " مناسبا أهل السماء لأن عبادتهم بدون مشقة، وجاء قوله:" وَكَرْهًا " مناسبا أهل الأرض لأن عبادتهم بمشقة.[٤]

---

١ – ينظر روح المعانى: ١١٩/٧.
٢ – ينظر المرجع السابق نفسه، وتفسير أبي السعود:١١/٥.
٣ – ينظر حاشية الشهاب: ٢٢٩/٥.
٤ – ينظر تنوير المقياس من تفسير ابن عباس:٢٠٦/١.

والطباق في قوله:" طَوْعًا وَكَرْهًا" بيّن أن العالم كله مقهور لله تعالى خاضع لما أراد سبحانه منه مقصور على مشيئته لا يكون منه إلا ما قدره جل وعلا، كما بين أحوال الساجدين له سبحانه.

وقوله:" وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ" أي: ظلال الخلق ساجدة لله تعالى في الغدو والآصال، والباء بمعنى (في) وهو كناية عن دوام سجودهم لله تعالى وانقيادهم له، وليس المراد تخصيص هذين الوقتين بالعبادة.

وتخصيص الوقتين " الْغُدُوّ وَالْآصَال "بالذكر مع أن انقيادها متحققٌ في جميع أوقات وجودِها لظهور ذلك فيهما ، والغدو:جمع غَداة كفتيّ في جمع فتاة ،والآصالُ: جمع أصيل. وقيل: جمع أُصُل وهو جمعُ أَصيلٍ، وهو ما بين العصر والمغربِ وقيل: الغدوّ: مصدرٌ ويؤيده أنه قرىء والإيصالِ أي الدخول في الأصيل. وقيل المراد إنّ الامتداد في الآصال أظهر، والتقلص في الغدوّ أظهر أمّا الأوّل فلأن في الأصيل يزيد الظل في زمان قصير كثيراً، وأمّا الثاني فلأن نقصانه في زمان قليل كثير. [1]

والضمير في قوله:" وَظِلَالُهُمْ" عائد على " مَنْ فِيَ الْأَرْضِ" ومعنى سجود الظلال أن الله خلقها من أعراض الأجسام الأرضية ، فهي مرتبطة بنظام انعكاس أشعة الشمس عليها وانتهاء الأشعة إلى صلابة وجه الأرض حتى تكون الظلال واقعة على الأرض وقوع الساجد ، فإذا كان من الناس من يأبى السجود لله أو يتركه اشتغالا عنه بالسجود للأصنام فقد جعل الله مثاله شاهدا على استحقاق الله السجود إليه شهادة رمزية، .... والغرض من هذا الاستدلال الرمزي التنبيه لدقائق الصنع الإلهي كيف جاء على نظام مطرد دال بعضه على بعض.[2]

وفي جعل سجود الظلال له سبحانه استعارة، حيث شبه ارتسام صورة الظل على الأرض بالساجد، وذلك بجامع الخضوع والانقياد له سبحانه، فألحق العرض بالجوهر ، ما لا يعقل بمن يعقل، فالجميع منقاد لله تعالي.

---

١ – ينظر تفسير أبي السعود: ١٢/٥، وحاشية الشهاب: ٢٢٩/٥.

٢ – ينظر التحرير والتنوير:١١١/١٣.

ولأن الجو جو عبادة ودعاء، فإن السياق يعبر عن الخضوع لمشيئة الله بالسجود وهو أقصى رمز للعبودية، ثم يضم إلى شخوص من في السماوات والأرض، ظلالهم كذلك. ظلالهم بالغدو في الصباح، وبالآصال عند انكسار الأشعة وامتداد الظلال. يضم هذه الظلال إلى الشخوص في السجود والخضوع والامتثال. وهي في ذاتها حقيقة، فالظلال تبع للشخوص. ثم تلقي هذه الحقيقة ظلها على المشهد، فإذا هو عجب. وإذا السجود مزدوج: شخوص وظلال! وإذا الكون كله بما فيه من شخوص وظلال جاثية خاضعة عن طريق الإيمان أو غير الإيمان سواء. كلها تسجد لله.[1]

ثالثا: قوله تعالى في سورة النحل:" وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ" الآية: ٤٩.

(أ) علاقة الآية بسياق السورة:

سورة النحل كسائر السور المكية تعالج موضوعات العقيدة الكبرى: الألوهية. والوحي. والبعث. وهي مليئة حافلة من ناحية الموضوعات التي تعالجها. فأما الإطار الذي تعرض فيه هذه الموضوعات، والمجال الذي تجري فيه الأحداث، فهو فسيح شامل..هو السماوات والأرض وما فيهما، وهو الغيب بألوانه وأعماقه في الأنفس والآفاق. هي حملة هادئة الإيقاع ،ولكنها في هدوئها تخاطب كل حاسة وكل جارحة في الكيان البشري، وتتجه إلى العقل الواعي كما تتجه إلى الوجدان الحساس.فبعد أن قرر وحدة الألوهية، وعلل عدم إيمان الذين لا يؤمنون بالآخرة بأن قلوبهم منكرة، بيّن مشهد الظلال في الأرض كلها ساجدة لله، وهذا في الجمادات، ثم ذكر سجود الأحياء فقال: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ " فالملائكة، قد برئت نفوسهم من الاستكبار، وامتلأت بالخوف من الله، والطاعة لأمره بلا جدال..هذا المشهد الخاشع الطائع يقابل صورة المستكبرين المنكرة قلوبهم.[2]

---

١ – في ظلال القرآن: ٢٠٥٢/٤.

٢ – ينظر في ظلال القرآن: ٣١٥٨/٤ بتصرف.

(ب) التحليل البلاغي:

قوله تعالي:" وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ " أي: يسجد له وحده لا لغيره ما في السموات وما في الأرض، وقدّم الجار والمجرور"لِلَّهِ" على الفعل"يَسْجُد" لإفادة القصر الإضافي، وهو يحتمل القلب حيث خوطب به من يعتقد سجود ما فى السموات والأرض لغير الله، فلا يسجدون له سبحانه، فبين لهم أن جميع ما فيهما يخضعون وينقادون له سبحانه، ويجوز أن يكون القصر مراداً به الإفراد حيث يخاطب به من يعتقد سجود ما في السموات والأرض لله ولغيره من المخلوقات ، فبين الحق – سبحانه – بهذا القصر أن جميع ما في السموات والأرض يسجدون له وحده فيخصونه بالسجود ولا يشركون معه غيره،وهذا هو الأنسب بحال المخاطبين بدليل قول الله تعالي بعد ذلك:" وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ"[1] وقد بيّن ذلك في صورة موجزة مختصرة، وهي صورة القصر.

ووضع الظاهر "لِلَّهِ" موضع ضميره " لَهُ " وذلك في قوله: " وَلِلَّهِ" لما فى لفظ الجلالة من تربية العظمة والمهابة والجلال.

ومضارعية الصيغة " يَسْجُدُ" تدل على تجدد واستمرار خضوع ما في السموات وما في الأرض وانقيادهم لله وحده، فالسياق يدل على ذلك.

وفي هذا تعريض بالمشركين الذين يشركون مع الله سبحانه وتعالى غيره في السجود والعبادة ، وبيان أن المخلوقات الساجدة لله في السموات والأرض هي خير من المشركين، فهم دون كل هذه المخلوقات. وقد يراد بـ "السَّمَاوَاتِ "الأجواء فيراد بما فيها الطيور والفراش

وفي ذكر أشرف المخلوقات وأقلها تعريض بذم من نزل من البشر عن مرتبة الدواب في كفران الخالق ، وبمدح من شابه من البشر حال الملائكة .

وقوله :" مِنْ دابَّةٍ" يجوز أن يكون بياناً لـ " مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ " جميعاً، على أنّ في السموات خلقا لله يدبون فيها كما يدب الأناسى في الأرض، وأن يكون بيانا لـ "

---

١ – سورة النحل: ٥١.

مَا فِي الْأَرْضِ " وحده، ويراد بـ " مَا فِي السَّمَاوَاتِ": الملائكة. وكرّر ذكرهم على معنى: والملائكة خصوصا من بين الساجدين، لأنهم أطوع الخلق وأعبدهم ، وذلك من باب عطف الخاص على العام ، تعظيما وإجلالاً للخاص وهم الملائكة، ويجوز أن يراد بـ "مَا فِي السَّمَاوَاتِ" : ملائكتهنّ. وبقوله:" وَالْمَلَائِكَةُ": ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم ، ولفظ السجود يشمل المكلفين وغيرهم، فيكون المراد بسجود المكلفين: طاعتهم وعبادتهم، وبسجود غيرهم: انقياده لإرادة الله وأنها غير ممتنعة عليها، وكلا السجودين يجمعهما معنى الانقياد فلم يختلفا، فلذلك جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد.

وعبر بلفظ "ما" الموصولية في قوله " مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ " للتغليب لأن ما لا يعقل أكثر ممن يعقل في العدد والحكم للأغلب.

وقدّم ذكر "مِنْ دابَّةٍ" على "وَالْمَلَائِكَةُ" حتى لا يقع الفصل بين ذكر " الْأَرْضِ " وذكر "الدَّابَّةِ " لاتصالهما في المعنى، أي ليكون السياق "وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ".

وأيضا لأن ذكر " الْمَلَائِكَةُ " بعد ذكر "مِنْ دَابَّةٍ" مناسب للسياق؛ لأن الكلام الذي بعد ذكر الملائكة جاء متصلا بموضوع الملائكة "وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ " فجاء ذكر "مِنْ دَابَّةٍ" متصلا بما قبله، وذكر "وَالْمَلَائِكَةُ" متصلا بما بعده، ولو عكسنا الأمر في – غير السياق القرآني – بأن ذكرنا "وَالْمَلَائِكَةُ" أولا و"مِنْ دَابَّةٍ" ثانيا لانقطع السياق، وذهب جمال النص.[1]

ومعنى سجود الدواب لله أن الله جعل في تفكيرها الإلهامي التذاذها بوجودها وبما هي فيه من المرح والأكل والشرب، وتطلب الدفع عن نفسها من المتغلب ومن العوارض بالمدافعة أو بالتوقي، ونحو ذلك من الملائمات. فحالها بذلك كحال شاكر تتيسر تلك الملائمات لها، وإنما تيسيرها لها ممن فطرها. وقد تصحب أحوال تنعمها حركات تشبه إيماء الشاكر المقارب للسجود، ولعل من حركاتها ما لا يشعر به الناس لخفائه وجهلهم بأوقاته، وإطلاق السجود على هذا مجاز. والسياق القرآني يعبر عن خضوع الأشياء لنواميس الله بالسجود ويرسم المخلوقات داخرة أي خاضعة خاشعة طائعة. ويضم إليها ما في

١ – ينظر الكشاف: ٢ / ٦٠٩بتصرف، والتفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني:٩٩.

السماوات وما في الأرض من دابة. ويضيف إلى الحشد الكوني.. الملائكة فإذا مشهد عجيب من الأشياء والظلال والدواب. ومعهم الملائكة. في مقام خشوع وخضوع وعبادة وسجود. لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يخالفون عن أمره. [1]

وقوله:" وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ" أي أن الملائكة مع علو شأنهم لا يستكبرون عن عبادته – تعالي– فكيف بهؤلاء المشركين المستكبرين؟!

ومضارعية الصيغة في قوله:" لَا يَسْتَكْبِرُونَ" تدل على تجدد واستمرار عدم استكبارهم ، وأنهم منقادون خاضعون له – سبحانه. والمنكرون المستكبرون من بني الإنسان وحدهم هم الشواذ في هذا المقام العجيب. وفي ذلك تعريض ببعد المشركين عن تلك المنزلة الرفيعة.

رابعا: قوله تعالى في سورة الإسراء:" وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا" الآيات: (١٠٦–١٠٩)

(أ) علاقة الآيات بسياق السورة:

تضم سورة الإسراء موضوعات شتى معظمها عن العقيدة وبعضها عن قواعد السلوك الفردي والجماعي وآدابه القائمة على العقيدة إلى شيء من القصص عن بني إسرائيل يتعلق بالمسجد الأقصى الذي كان إليه الإسراء. وطرف من قصة آدم وإبليس وتكريم الله للإنسان. ولكن العنصر البارز في كيان السورة ومحور موضوعاتها الأصيل هو شخص الرسول ﷺ وموقف القوم منه في مكة. وهو القرآن الذي جاء به، وطبيعة هذا القرآن، وما يهدي إليه، واستقبال القوم له. ثم أخبر أن الحكمة في إنزال القرآن منجماً وذلك بأن يقرأ منه كل نجم في وقته الذي أنزله فيه ليكون أعون على الفهم وأقرب للحفظ، وأعظم تثبيتاً للفؤاد، وأشرح

١ – ينظر: التحرير والتنوير: ١٤/١٧٠، وفى ظلال القرآن: ٤/٢١٦٦.

للصدر، ولما زالت الشبه لدى المشركين أمر الله نبيه أن يخبرهم أن الإيمان به لا يتوقف عليهم حيث يؤمن به من أُتِي حظاً من العلم قبل نزوله فقال:" قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ...." [1]

(ب) التحليل البلاغي:

قوله:" قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْلَا تُؤْمِنُوا " أمر من الله –تعالي– لنبيه بأن يعرض عنهم، ولا يكترث بهم، فإيمانهم لن يزيد في كمال الله وملكه شيئاً كما أن كفرهم لن ينقص منه شيئاً، فقد آمن به من هو خير منكم،فالأمر يفيد التسوية بين إيمانهم وعدمه، وهذا كناية عن الإعراض عنهم واحتقارهم وقلة المبالاة بهم.

وقوله:" إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا" أي العلماء الذين قرءوا الكتبَ السالفةَ من قبل تنزيلِه وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوةِ وتمكّنوا من التمييز بين الحقِّ والباطلِ والمُحقِّ والمبطلِ ورأوا فيها نعتَك ونعتَ ما أنزل إليك إذا سمعوا القرآن يسقطون على وجوههم تعظيماً لأمر الله تعالى أو شكراً لإنجاز ما وعد به في تلك الكتبِ من بعثتك.

وهو تعليلٌ لما يُفهم من قولِه تعالَى: "آمنوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ" من عدم المبالاة بذلك أي إن لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسنَ إيمانٍ مَنْ هو خيرٌ منكم، ويجوز أن يكون تعليلاً لـ "قُلْ" على سبيل التسليةِ لرسول الله ﷺ كأنه قيل: تسلَّ بإيمان العلماءِ عن إيمان الجهلةِ ولا تكترث بإيمانهم وإعراضِهم.[2]

وأكد الخبر بـ "إن وإسمية الجملة" لتأكيد الخبر وتقويته ،وللتسرية عن النبي ﷺ وطمأنة قلبه، وعرف المسند إليه بالموصولية " الَّذِينَ "للإيماء إلى وجه بناء الخبر وبيان أن خرورهم وخضوعهم عند سماع القرآن إنما كان بسبب ما أوتوه من علم.

---

١ – ينظر في ظلال القرآن: ٤/٢٢٥٤، ونظم الدرر: ١١/٥٣٥.

٢ – ينظر تفسير أبي السعود:٥/١٩٩.

والتعبير بالإتيان في قوله:" أُوتُوا " يدل على سهولة ويسر ما أوتوه من علم ولم يكن ذلك بالقوة والقهر والغلبة، وفيه دلالة على عظم ما تعلموه من الوحى والشرائع السابقة.

وبنيت الصيغة للمفعول في قوله:" أُوتُوا " للعلم بالفاعل ولتركيز الاهتمام على الإتيان ، وفيه تعريض بأن الذين أعرضوا عن الإيمان بالقرآن جهلة وأهل جاهلية. وتنبيه على أن من كان يعلم ولا يحمله علمه على الإيمان بهذا الكتاب فعلمه كلا علم بل هو أجهل الجهلة.

ولما كان أمر التلاوة متكرراً وكثيراً ناسب الإتيان بـ " إِذَا " دون " إِن " التي تفيد التقليل، وفي بناء صيغة" يُتْلَى " للمفعول دليل على أنهم ينقادون ويخضعون ويسجدون لتلاوة أيّ تالٍ.

وقوله:" يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا " خَرَّ: أي سقط سقوطاً يسمع منه خرير"[1] ، والأذقان: جمع ذقن وهو مجتمع اللحيين، ويطلق على ما ينبت عليه من الشعر مجازاً ، وكذا يطلق على الوجه تعبيراً بالجزء عن الكل ففيه مجاز مرسل علاقته الجزئية، فكأنه قيل: يسقطون بسرعة على وجوههم سُجَّداً تعظيماً لأمر الله تعالى أو شكراً لإنجاز ما وعد به في تلك الكتب من بعثتك ، ويحتمل أن يكون قوله:" خَرُّوا ، و سُجَّدًا " على الحقيقة،وقيل:لا شيء من ذلك وإنما المقصود أنهم ينقادون لما سمعوا ويخضعون له كمال الانقياد والخضوع فأخرج الكلام على سبيل الاستعارة التمثيلية.

وقد فسر الخرور للأذقان بالسقوط على الوجوه (الزمخشري) ثم قال: وإنما ذكر الذقن وهو مجتمع اللحيين، لأنّ الساجد أول ما يلقى به الأرض من وجهه الذقن."[2] وقيل: فيه نظر لأن الأول هو الجبهة والأنف ثم وجه بأنه إذا ابتدأ الخرور فأقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض هو الذقن، وكأنه أريد أول ما يقرب من اللقاء، وجوز أن تبقى الأذقان على حقيقتها والمراد المبالغة في الخشوع وهو تعفير اللحى على التراب والتحامل على الجبهة والأنف حتى كأنهم يلصقون الأذقان بالأرض، أو أنه ربما خروا على الذقن كالمغشى عليهم لخشية الله تعالى، وقيل: لعل سجودهم كان هكذا .[3]

---

١ – المفردات: " خرر".

٢ – الكشاف: ٢/٦٩٩.

٣ – ينظر روح المعاني: ٨/١٧٩.

واللام في قوله:" لِلْأَذْقَانِ "بمعنى "على" أي على الأذقان وأوثرت اللام للدلالة على الاختصاص، أي جعلوا أذقانهم للخرور، وتخصيصها يدل على كمال تذللهم لله تعالى وانقيادهم له، فيكون فيها استعارة تبعية. حيث استعير حرف الاختصاص"اللام" لمعنى الاستعلاء"على" للدلالة على مزيد التمكن كتمكن الشيء بما هو مختص به.

وقوله:" سُجَّدًا " جمع ساجد، وهو في موضع الحال من ضمير " يَخِرُّونَ " لبيان الغرض من هذا الخرور، وعبر بالاسم" سُجَّدًا " دون الفعل"يسجدون" وذلك للدلالة على مسارعتهم إلى السجود حتى أنهم يسقطون سقوط من ليس له اختيار، وهذا السقوط ليس اضطرارياً ولكنه سجود تعظيم لله عند مشاهدة آية من دلائل علمه وصدق رسله وتحقيق وعده، وذلك لأن هؤلاء هم الذين آتاهم الله العلم وهداهم للإيمان. وجاء لفظ السجود هنا بصيغة الجمع" سُجَّدًا "وفيه دلالة على دوام تذللهم لله تعالى وخضوعهم له.

وجرس الكلمة " سُجَّدًا "يدل على معناها فنجد أن صوت السين صوت احتكاكي يمتد معه الهواء ليتلاءم مع السرعة والخفة في الإقبال على الله، وأما صوت الجيم باحتكاكه وتذبذب الأوتار الصوتية فيه فيتناسب مع الحركة في سرعة الإقبال على الله بعد بدء الصلاة، والدال صوت شديد مجهور يتناسب مع صوت وضع أعضاء السجود السبعة على الأرض، وصفتها الشدة والجهر بارتفاع الصوت عند وضعها ناتج عن ذلك.

وقوله:" وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا " أي ينزهون الله تعالى في سجودهم ويمجدونه عن تكذيب الكفار والمشركين، فهؤلاء قد جمعوا بين الفعل الدال على الخضوع وهو "السجود" والقول الدال على التنزيه والتعظيم وهو قولهم:"سُبْحَانَ رَبِّنَا" . ومضارعية الصيغة"يَقُولُونَ" تدل على تجدد واستمرار سجودهم وتنزيههم لله تعالى.والتعريف بالإضافة في قولهم:" رَبِّنَا " فيه تشريف لهم ومزيد إذعان وانقياد لله تعالى.

وقوله:" إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا " أي: إن وعد الله كائن لا يتخلف، ولتأكيد إيمانهم بهذا الأمر أكد هذا الخبر بـ " إِنْ، ودخول اللام على الخبر– لَمَفْعُولاً " وهذا تعريض بقريش حيث كانوا يستهزئون بالوعيد الذي يتوعدهم به النبي ﷺ إن لم يؤمنوا.

وقوله:" وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا" التعبير بالمضارع في هذه الآية وما قبلها" يُتْلَى ، ويَخِرُّونَ ، وَيَقُولُونَ ، وَيَخِرُّونَ ، ويَبْكُونَ ، وَيَزِيدُهُمْ " وذلك لاستحضار

الصورة والحالة التى كانوا عليها.ويزيدهم القرآن خشوعاً على خشوعهم الذي كان لهم من سماع كتابهم .

وكرر الخرور للذقن وهو السقوط على الوجه لاختلاف الحالين ، فالأول: خرورهم في حال كونهم ساجدين والثاني: خرورهم في حال كونهم باكين، أو الأول: في حالة سماع القرآن أو قراءته ، والثاني: في سائر الحالات. وفيه توكيد وتركيز على الحالة الدالة على الخشوع والخضوع لله رب العالمين ، ثم عقب على الحالين بحال ثالثة: وهي زيادتهم خشوعاً كلما قرءوا وكلما سجدوا ، فاستوفى بذلك سائر أحوالهم ،وهم الكملة الذين أوتوا العلم ،وأتى بالحال الأولى اسماً وهي قوله:" سُجَّدًا" للدلالة على الدوام، وأتى بالحال الثانية: فعلاً " يَبْكُونَ " للدلالة على التجدد والحدوث فكأنما بكاؤهم يتجدد بتجدد الأحوال الطارئة والعظات المتتالية.

وهذا مشهد موحٍ يلمس الوجدان. مشهد الذين أوتوا العلم من قبله، وهم يسمعون القرآن، فيخشعون، و " يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا " إنهم لا يتمالكون أنفسهم، فهم لا يسجدون فقط ولكن " يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا " ثم تنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله وصدق وعده: " سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا " . ويغلبهم التأثر فلا تكفي الألفاظ في تصوير ما يجيش في صدورهم منه، فإذا الدموع تنهمر معبرة عن ذلك التأثر الغامر الذي لا تصوره الألفاظ: " وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ " .. "وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا " فوق ما استقبلوه به من خشوع.

إنه مشهد مصور لحالة شعورية غامرة، يرسم تأثير هذا القرآن في القلوب المتفتحة لاستقبال فيضه العارفة بطبيعته وقيمته بسبب ما أوتيت من العلم قبله. والعلم المقصود هو ما أنزله الله من الكتاب قبل القرآن، فالعلم الحق هو ما جاء من عند الله.[1] أو يكون المقصود مطلق العلم ، فالعلماء أكثر الناس خشية لله تعالى.

١ – ينظر في ظلال القرآن : ٤/٢٢٥٤، وإعراب القرآن وبيانه:٥/٥٢٢.

خامسا: قوله تعالى في سورة مريم:" أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا" الآية:٥٨.

(أ)علاقة الآية بسياق السورة:

يدور سياق هذه السورة على محور التوحيد ونفي الولد والشريك ويلم بقضية البعث القائمة على قضية التوحيد.. هذا هو الموضوع الأساسي الذي تعالجه السورة، كالشأن في السور المكية غالبا.

والقصص هو مادة هذه السورة. فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى. فقصة مريم ومولد عيسى. فطرف من قصة إبراهيم مع أبيه.. ثم تعقبها إشارات إلى النبيين: إسحاق ويعقوب، وموسى وهرون، وإسماعيل، وإدريس. وآدم ونوح. ويستهدف إثبات الوحدانية والبعث، ونفي الولد والشريك، وبيان منهج المهتدين ومنهج الضالين من أتباع النبيين.ومن ثم بعض مشاهد القيامة، وبعض الجدل مع المنكرين للبعث.

وتأتي هذه الآية لتقف عند المعالم البارزة في صفحة النبوة وذلك في تاريخ البشرية، ومعهم من هدى الله واجتبى من الصالحين من ذرياتهم مبينا صفاتهم البارزة فيهم فقال:" أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ...الآية"[1]

(ب) التحليل البلاغي:

قوله: " أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ.." أولئك : اسم الإشارة عائد إلى المذكورين من أول السورة. وعرف المسند إليه باسم الإشارة الموضوع للبعيد " أولئك " حيث جعل البعد المكاني دلالة على علو رتبهم وبعد منزلتهم في الفضل، وللتنبيه على أن المشار إليهم جديرون بما يذكر بعد اسم الإشارة لأجل ما ذكر مع المشار إليهم من الأوصاف، أي كانوا أحرياء بنعمة الله عليهم وكونهم في عداد المهديين المجتبين وخليقين بمحبتهم لله تعالى وتعظيمهم إياه.

---

١ – ينظر في ظلال القرآن:٤/٢٢٩٩.

ويحتمل أن يكون قوله:" الَّذِينَ " خبر " أُولَئِكَ " فيكون من قبيل القصر الإضافي بالنسبة إلى غير الأنبياء الباقين – عليهم السّلام – لأنهم معروفون بكونهم منعما عليهم فينزل الإنعام على غيرهم منزلة العدم، وذلك مبالغة في النعم التي أنعم الله بها عليهم ،أو أن يكون من قبيل الإيجاز بحذف المضاف: أي بعض الذين أنعم الله عليهم، وفي إسناد تلك النعم والعطايا إلى الله تعالى تشريف لها. ويحتمل أن يكون صفة لـ " أُولَئِكَ " أي أنعم عليهم بالنعم الدينية والدنيوية. وفي التعريف بالموصولية إشارة إلى العناية بهم، وتعظيم شأنهم.

و" مِنَ " في قوله:" مِنَ النَّبِيِّينَ " بيانية فجميع الأنبياء منعم عليهم، وفي قوله:" مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ " تبعيضية، ولما كان في إنجاء نوح عليه السلام وإغراق قومه من القدرة الباهرة ما لا يخفى، نبه عليه بنون العظمة في قوله:" وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ " وقوله:" وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا "عطف على قوله تعالى:" مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ" و "من" للتبعيض أي: ومن جملة من هديناهم إلى الحق واخترناهم للنبوة والكرامة.

وجوز أن يكون عطفاً على قوله سبحانه:" مِنَ النَّبِيِّينَ" و"من" للبيان وأورد عليه أن ظاهر العطف المغايرة فيحتاج إلى أن يقال: المراد ممن جمعنا له بين النبوة والهداية والاجتباء للكرامة وهو خلاف الظاهر.[1]

وفي الاجتباء دلالة على الاصطفاء والانتقاء والاختيار، فالله – سبحانه – اختارهم واصطنعهم لنفسه وعبادته، والهداية هدايته والاجتباء اجتباؤه، والعبارة توحي بعظم الفارق بين هؤلاء وبين الذين خلفوهم سواء من مشركي العرب أو من مشركي بني إسرائيل، وفي حذف مفعولي " هَدَيْ وَاجْتَبَيْ " دلالة على التعظيم والعموم والشمول فالله – سبحانه– أسبغ عليهم من النعم ما يجل عن الوصف ، والسياق يقف في هذا العرض عند المعالم البارزة في صفحة النبوة في تاريخ البشرية، فأولئك النبيون ومن معهم ممن هدى الله واجتبى من الصالحين ومن ذريتهم صفتهم البارزة:" إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا" وهو استئناف مساق لبيان خشيتهم من الله تعالى وإخباتهم له – سبحانه – مع ما لهم من علو الرتبة وسمو

١ – ينظر روح المعاني:٨/٤٢٥.

الطبقة في شرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله عز سلطانه.فكأن سائلا قال: لم أنعم الله على هؤلاء؟ وتصلح هذه الجملة أن تكون جوابا عنه.

وقيل: خبر بعد خبر لاسم الإشارة، وقيل: إن الكلام قد انقطع عند قوله تعالى:" وَإِسْرائِيلَ" وقوله سبحانه:" وَمِمَّنْ هَدَيْنا" خبر مبتدأ محذوف، وهذه الجملة صفة لذلك المحذوف. أي : وممن هدينا واجتبينا قوم إذا تتلى عليهم ...

والظاهر أن يكون الموصول صفة لاسم الإشارة وهذه الجملة هي الخبر لأن ذلك أمدح لهم. حيث وصفهم بسرعة الخشوع من ذكر الله الناشيء عن دوام الخضوع والناشيء عنه الإسراع بالسجود في حالة البكاء، وجعلهما حالتين بالعطف بالواو لعراقة المتحلي بهما في كل منهما على انفراده، وعبر بالاسم في كل من السجود والبكاء، إشارة إلى أن خوفهم وخضوعهم دائمان وثابتان للكبير المتعال [1]

ولما كان أمر التلاوة متكرراً وكثيراً ناسب الإتيان بـ " إِذَا " دون " إن " التي تفيد التقليل،فعملهم دائم ومستمر وذلك بقراءة الكتب والآيات التي أنزلت عليهم وبتدبرها والتفكر فيها وبالعمل بها ، وفي بناء صيغة" تُتْلَى " للمفعول دليل على أنهم ينقادون ويخضعون ويسجدون لتلاوة أيّ تالٍ. وفي تعريف" آيَاتُ الرَّحْمَنِ " بالإضافة دليل على عظم وشرف هذه الآيات ، وأنها آيات رحمة ومغفرة وفضل من الله ورضوان.

والتعبير بالخرور يوحي بسرعة استجابتهم وانقيادهم لله – تعالى – وذلك عند سماع آياته ، وتهتز وجداناتهم وترتعش ولا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر، فتفيض عيونهم بالدموع ، ولذا وجب علينا نحن المسلمين الاقتداء بأولئك الأنبياء في السجود عند تلاوة القرآن، والبكاء من خشية الله تعالي ،فهم سجدوا كثيرا عند تلاوة آيات الله التي أنزلت عليهم، وفاضت أعينهم بالدمع خشية ومهابة لله – تعالي – ونحن نسجد اقتداء بهم عند تلاوة الآيات التي أنزلت إلينا وذلك قصدا للتشبه بهم .

---

١ – ينظر المرجع السابق نفسه ، ونظم الدرر:٢٢٢/١٢.

سادسا: قوله تعالى في سورة النمل: "وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ " الآيات: ٢٤-٢٦.

(أ) علاقة الآيات بسياق السورة:

موضوع السورة هو العقيدة: الإيمان بالله، وعبادته وحده، والإيمان بالآخرة، وما فيها من ثواب وعقاب. والإيمان بالوحي وأن الغيب كله لله، لا يعلمه سواه. والإيمان بأن الله هو الخالق الرازق واهب النعم وتوجيه القلب إلى شكر أنعم الله على البشر. والإيمان بأن الحول والقوة كلها لله .

ويأتي القصص لتثبيت هذه المعاني وتصوير عاقبة المكذبين بها، وعاقبة المؤمنين... والتركيز في هذه السورة على العلم. علم الله المطلق بالظاهر والباطن، وعلمه بالغيب خاصة. وآياته الكونية التي يكشفها للناس. والعلم الذي وهبه لداود وسليمان. وتعليم سليمان منطق الطير وتنويهه بهذا التعليم.. ومن ثمّ تأتى هذه الآيات على لسان الهدهد لتبين مظهراً من مظاهر هذا العلم الذى أوتيه هذا الطائر حيث قال تعالي مخبراً عنه قوله: " وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ.."[1]

(ب) التحليل البلاغي:

لما أخبر الهدهد سيدنا سليمان بنبأ قوم سبأ ، وأنهم على ضلالة – وذلك بإلهام الله له – فالشيطان قد زين لهم السجود للشمس من دون الله ، بيّن علة ذلك بقوله: " أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ " أي: لئلا يسجدوا لله. ويحتمل أن يكون هذا القول من قول الله – تعالى– اعتراضاً بين الكلامين، حيث قرئ: " أَلا يَسْجُدُوا "

١ – ينظر في ظلال القرآن: ٥/٢٦٢٤ وما بعدها.

بالتخفيف، ووقفوا على قوله: " ألا يا" . ثم يبدؤون: اسجدوا، على معنى: ألا يا هؤلاء اسجدوا، وتكون "ألا" للتنبيه، و"يا" حرف النداء، والمراد به هنا التنبيه والاستعطاف لما ينادون من أجله وهو السجود لله – تعالى – وحده ، وجُعل أمراً من عند الله مستأنفاً، وحذف المنادي "هؤلاء" اكتفاء بدلالة "يا" عليه، ومن ذلك قول بعض العرب: ألا يا ارحمونا، يريدون ألا يا قوم، وقول الشاعر:

ألا يا اسْلَمِي يا دارَ مَيَّ على البِلى ولا زالَ مُنْهَلاً بجَرْعائِكِ القَطْرُ [1]

ويرى أبو حيان أن "يا" في تلك التراكيب حرف تنبيه أكد به "ألا" التي للتنبيه، وجاز ذلك لاختلاف الحرفين، ولقصد المبالغة في التوكيد.[2]

وقرأ آخرون: " أَلاَّ يَسْجُدُوا" بالتشديد بمعنى، فصدّهم عن السبيل لئلا يسجدوا فحذف الجار مع أن. ويجوز أن تكون "لا" مزيدة للتوكيد، ويكون المعنى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا. وعلى هذه القراءة يحتمل أن يكون الكلام استئنافا من كلام الهدهد إما خطابا لقوم سليمان – عليه السلام– للحث على عبادة الله تعالى أو لقوم بلقيس لتنزيلهم منزلة المخاطبين. ويحتمل أن يكون استئنافا من جهة الله عز وجل أو من سليمان– عليه السلام.

ولعل الأظهر احتمال كونه استئنافا من جهته – عز وجل – خاطب – سبحانه – به هذه الأمة [3] وعلى كلٍ فإحدى القراءتين أمر بالسجود، والأخرى ذم للتارك له.

وقوله:" الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" الخبء الذي في السماوات: هو المطر، والخبء الذي في الأرض: هو النبات، والخبء: كل ما غاب، فيكون المعنى يعلم الغيب في السماوات والأرض.[4] والأولى الحمل على العموم فيشمل كل ما غاب فيهما، والخبء: مصدر خبأ الشيء إذا أخفاه. أطلق هنا على اسم المفعول، أي المخبوء على

---

١ – البيت لذي الرمة. وألا استفتاحية للتنبيه، فلا معنى ليا إلا النداء. والمنادى بها محذوف، تقديره: يا دارمى أسلمي، فاستغنى عنه بما بعده، وحذفه اهتماما بطلب السلامة لها. وفي تكرير ندائها: نوع تفجع. ومى: مرخم مية. وترخيم المضاف إليه: ضرورة حسنها سبق النداء. وعلى: بمعنى مع، أى: اسلمي ولو كنت بالية، لأنه إن لم تبق الدار كفتني الآثار. ومنهلا: منصبا، والجرعاء: مؤنث الأجراع، وهو الموضع المختلط ترابه بالحصى. والقطر:المطر، يدعو لها بالخصب.

٢ – ينظر البحر المحيط: ٨/٢٣٠.

٣ – ينظر النشر في القراءات العشر:٢/٣٣٧. وروح المعاني : ١٠/١٨٧.

٤ – ينظر لسان العرب ، والمفردات: (خبء).

طريقة المبالغة في الخفاء كما هو شأن الوصف بالمصدر. والأولى حمل هذا الأسلوب على الحقيقة، وليس في قوله:" الْخَبْءَ " استعارة.[1]

واختيار هذا الوصف لما أنه أوفق بالقصة حيث تضمنت ما هو أشبه شيء بإخراج الخبء وهو إظهار أمر بلقيس وما يتعلق به. وعلى هذا القياس اختيار ما ذكر بعد من صفاته عز وجل، وقيل: إن تخصيص هذا الوصف بالذكر لما أن الهدهد أرسخ في معرفته والإحاطة بأحكامه بمشاهدة آثاره التي من جملتها ما أودعه الله تعالى في نفسه من القدرة على معرفة الماء تحت الأرض[2]

ومضارعية الصيغة في قوله:" يُخْرِجُ " تدل على تجدد واستمرار إخراج ما هو غير معلوم لهم من المطر وإخراج النبات وإعطاء الأرزاق، وغير ذلك من الرياح، والبرد والحر، الحركة والسكون، والنطق والسكوت، وما لا يحصيه إلا الله تعالى بقدرته وإرادته، فهو يخرج ما هو في عالم الغيب فيجعله في عالم الشهادة. وفى التعبير بحرف الجر" فِي " دون "من" دلالة على عظيم قدرته تعالى، فهذه الأمور مخبوءة ومكنونة ومستترة في السموات والأرض لا يستطيع إخراجها وإنزالها إلا هو سبحانه وتعالى. وهذا كناية عن كمال قدرته تعالى.

وقوله: "وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ" معطوف على قوله:" يُخْرِجُ" وفي ذلك إشارة إلى أنه تعالى يخرج ما في العالم الإنساني من الخفايا كما يخرج ما في العالم الكبير من الخبايا، فيظهر ما تخفونه من الأحوال فيجازيكم بها وذكر " ما تُعْلِنُونَ " لتوسيع دائرة العلم أو للتنبيه على تساويهما بالنسبة إلى العلم الإلهي. وهذا كناية عن كمال علمه عز وجل وأنه استوى فيه الباطن والظاهر.

وبين قوله:" يَسْجُدُوا " وقوله:" تُخْفُونَ،وَتُعْلِنُونَ " التفات من الغائب إلى المخاطب، وفي هذا إشارة إلى أن الجميع أمام علم الله تعالى وقدرته سواء.

---

١ – أشار إلى ذلك الباحث/سليمان خليل سليمان حيث قال في قوله"الخبء":"التعبير استعارة ، وتكمن بلاغة هذا التعبير في أنه شبه الأمور غير المعلومة بالخبء، بجامع أن كلا منهما مستتر ، ثم تنوسي التشبيه وادعي أن المشبه فرد من أفراده ، ثم استعير الخبء للشيء غير المعلوم" ينظر آيات السجود في القرآن الكريم، رسالة ماجستير مخطوطة في كلية اللغة العربية بالقاهرة– جامعة الأزهر، وهي موجودة بالمكتبة المركزية للجامعة تحت رقم/٩٩٩٧.

٢ – ينظر روح المعاني:١٠/١٨٨.

وحذف المفعول من قوله:" تُخْفُونَ ، وَتُعْلِنُونَ" يدل على عموم وشمول علمه تعالى لكل ما كثر وعظم وما دق وخفي، كما أن الطباق بين قوله:" تُخْفُونَ ، وَتُعْلِنُونَ" يدل على عموم علمه تعالى بكل شيء. وعلمه تعالى كائن ومستمر استمرار الحياة وهذا ما تدل عليه صيغة المضارع:" يَعْلَمُ"

وقدّم "ما تُخْفُونَ" مع مناسبته لما قبله من "الخبء" ، وقدّم وصفه تعالى بإخراج الخبء من السماوات ، لأنه أشد ملاءمة للمقام.(١)

وجاءت صيغة السجود فى هذا الموضع مضارعة مخاطب بها العقلاء الذين يسجدون للشمس من دون الله، وفي ذلك ذم لهم وحث على السجود للعالم بعظيم الأمور فضلا عن دقيقها، والقادر على كل شيء.

سابعا: قوله تعالى في سورة السجدة:" إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ" الآية: ١٥.

(أ) علاقة الآية بسياق السورة:

السورة تخاطب القلب البشري بالعقيدة الضخمة التي جاء القرآن ليوقظها في الفطر، ويركزها في القلوب والتصديق برسالة محمد– صلى الله عليه وسلم والاعتقاد بالبعث والقيامة والحساب والجزاء. فهي تواجه القلب البشري بما يوقظه ويحركه ويقوده إلى التأمل والتدبر مرة، وإلى الخوف والخشية مرة، وإلى التطلع والرجاء مرة. وتطالعه تارة بالتحذير والتهديد، وتارة بالإطماع، وتارة بالإقناع.. ثم تدعه في النهاية تحت هذه المؤثرات وأمام تلك البراهين. تدعه لنفسه يختار طريقه، وينتظر مصيره على علم وعلى هدى وعلى نور. وبعد أن ذكر الله إعراض المجرمين وتكبرهم وعدم إيمانهم وبيّن لهم سوء عاقبتهم ، أثنى تعالى على المؤمنين في وصفهم بالصفة الحسني من سجودهم عند التذكير، وتسبيحهم وعدم استكبارهم فقال : " إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا.. الآية.(٢)

(ب) التحليل البلاغي:

---

١ – ينظر المرجع السابق نفسه.

٢ – ينظر في ظلال القرآن: ٥/٢٨٠٣.

في الآيات السابقة بيّن أن هؤلاء الكافرين ثابتون على الكفر بلقاء الله دائمون عليه، ومكذبون به، دلّ على ذلك اسمية الجملة في قوله:" بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ " ، وكان هذا التكذيب بلقاء الله تكذيب بما جاء به القرآن فهم لا يؤمنون ، جاء قوله :" إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا " استئنافاً مسوقاً لتقريرِ عدمِ استحقاقِهم الهداية ، وأنهم لن يؤمنوا حتي لو رُدُّوا إلى الدنيا وبيّن فيه من يستحقها، وهم هذه الفئة المؤمنة المتدبرة للقرآن والمتعظة به أمّا هؤلاء فقد ألفوا الكفر ، فلا ينفك عنهم ولا ينفكون عنه.

وفي قوله :" إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا..." قصر إضافي، حيث قصر صفة الإيمان بآياته – سبحانه – على هؤلاء الخاشعين الخاضعين، ونفاه عمن ذكّر بآيات ربه ولم يسجد إذا ذكّر بها ، وهذا خبر وضع موضع الإنشاء ، وكأن الله تعالي يقول لهم آمنوا بي ، واسجدوا لآياتي إذا ذكّرتم بها ، وسبحوا بحمدي ولا تستكبروا. وذلك للإشعار بلزوم فورية الامتثال ، ولحمل المخاطبين على الفعل بألطف أسلوب.

والمعنى:إنما يؤمن بآيات الله الذين إذا ذكرّوا بها تذكيراً بما سبق لهم سماعه لم يتريثوا عن إظهار الخضوع لله دون هؤلاء ، وفي هذا تأييس للنبي ﷺ من إيمانهم، وتعريض بهم وأنهم لا ينفعون المسلمين بإيمانهم ولا يغيظونهم بالتصلب في كفرهم.

ومضارعية الصيغة في قوله :" يُؤْمِنُ " تدل على تجدد إيمانهم وازدياده واستمراره ، وفي التعريف بالموصولية " الَّذِينَ " دلالة على أنهم راسخون في الإيمان، فعبّر عن إبلاغهم آيات القرآن وتلاوتها على أسماعهم بالتذكير المقتضي أن ما تتضمنه الآيات حقائق مقررة عندهم لا يفادون بها فائدة لم تكن حاصلة في نفوسهم ولكنها تكسبهم تذكيراً فالذكرى تنفع المؤمنين. وهذه الصفة التي تضمنتها الصلة هي حالهم التي عرفوا بها لقوة إيمانهم، وتميزوا بها عن الذين كفروا، وليست تقتضي أن من لم يسجدوا عند سماع الآيات ولم يسبحوا بحمد ربهم من المؤمنين ليسوا ممن يؤمنون ، ولكن هذه حالة أكمل الإيمان وهي حالة المؤمنين مع النبي ﷺ يومئذ عرفوا بها. [1]

١ – ينظر التحرير والتنوير: ٢٢٧/٢١ بتصرف يسير.

والمراد بالآيات هنا: آيات القرآن الدالة على عظمته تعالى بقرينة قوله :" ذُكِّرُوا " بتشديد الكاف، أي أعيد ذكرها عليهم وتكررت تلاوتها على مسامعهم. ويكون فيها مجاز مرسل حيث أطلق الكل " الآيات" وأراد الجزء " آيات سجود التلاوة "، وفي ذلك دلالة على سرعة انقيادهم لله تعالي.وذلك لأن السجود لا يشرع لتلاوة القرآن إلا إذا كان فيه آية سجدة.

أو يكون المراد بها الصلوات الخمس ويكون المعنى: إِنَّما يؤمِن بفرائضنا من الصلوات الخمس الذين إذا ذُكِّروا بها بالأذان والإقامة خَرُّوا سُجَّداً. (١)

ويكون فيها مجاز مرسل حيث أطلق الكل " الآيات" وأراد الجزء " الصلاة "، وفي ذلك دلالة على عظمها وأهميتها ومكانتها فهي أساس الدين وعماده.

وفي التعبير بـ " ذُكِّرُوا " دلالة على أن هذه الآيات هم على دراية وعلى علم بها ، فهي حاضرة معهم لا تنقطع عنهم، وتضعيف الصيغة يدل على تجدد واستمرار تذكيرهم بالآيات كما يدل على تجدد واستمرار استجابتهم وانقيادهم وخضوعهم لها،ويؤكد ذلك ويقويه استخدام أداة الشرط "إذا" دون "إن" ، كما أن في بنائها للمفعول دلالة على أنهم يمتثلون لقول أيِّ مُذكِّر وفي أي وقت من الأوقات، فقد رَقَّت قلوبهم وزرفت أعينهم وخشعت جوارحهم فلا يملكون سوى الانقياد لله رب العالمين.

وفي التعبير بالشرط في قوله:" إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ" دلالة على سرعة استجابتهم وانقيادهم لله تعالى، فهم لا يترددون ولا ينتظرون بيان ما تنطق به الآيات من الوعد أو الوعيد فهم يسقطون على وجوههم ساجدين تواضعا لله تعالى وخشوعا وخوفا من عذابه عزّ وجلّ ، كما أن هناك تلازما بين هذا الخرور وبين تذكيرهم بآيات ربهم. وهم ينزهونه تعالى عن كل ما لا يليق بذاته من الأمور التي منها عجزه عن بعثهم بعد موتهم ، وهم يحمدونه على نعمائه وعلى هدايتهم إلى الإيمان بآياته، فهؤلاء قد خلطوا التسبيح بالحمد، أي نزهوه وحمدوه ، وعبر بالماضي في قوله:" خَرُّوا ، وَسَبَّحُوا " عن المستقبل " يخَرُّون ، وَيسَبِّحُون " وذلك للدلالة على تحقق خضوعهم وانقادهم لله تعالى وتنزيهه عما لا

١ – ينظر زاد المسير:٣/٩٣٤.

يليق بمقامه ، فهم يسارعون إلى ذلك، وقال :" سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ " ولم يقل: سبحوا بنعمة ربهم؛ لأن النعمة غير ملازمة لهم. وفي اقتران السجود بالتسبيح دلالة على انقياد أعضائهم الظاهرة والباطنة لله تعالى ، فهم يسقطون على وجوههم ساجدين وينزهونه ويحمدونه.

وفي الالتفات من أسلوب التكلم في قوله:" بِآيَاتِنَا " إلى الغائب في قوله:" بِحَمْدِ رَبِّهِمْ " بيان لعلَّة تسبيحهم وتحميدهم وأنَّهم يفعلونهما بملاحظة ربوبيته تعالى لهم، وذلك من كمال خشوعهم وخضوعهم لله تعالى.

وقوله:" وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ " أي: لايستكبرون عن عبادتهم لله وعمّا فعلوه من خرورهم وتسبيحهم وتحميدهم، ولا يستكبرون على أحد من الخَلق، وهذا الخُلُق متجدد ومستمر فيهم وحذف مفعول " يَسْتَكْبِرُونَ " ليعم ويشمل كل ذلك. وقدّم المسند إليه " هُمْ " على خبره الفعلي " لَا يَسْتَكْبِرُونَ" ليفيد اختصاصهم بذلك، وفيه تعريض بأهل مكة الذين استكبروا عن السجود لله تعالي والانقياد له وعن الإيمان برسوله وبما أنزل عليه.

وهذه "صورة وضيئة للأرواح المؤمنة، اللطيفة، الشفيفة الحساسة المرتجفة من خشية الله وتقواه، المتجهة إلى ربها بالطاعة المتطلعة إليه بالرجاء، في غير ما استعلاء ولا استكبار. هذه الأرواح هي التي تؤمن بآيات الله، وتتلقاها بالحس المتوفر والقلب المستيقظ والضمير المستنير.هؤلاء إذا ذكروا بآيات ربهم خروا سجدا تأثرا بما ذكِّروا به، وتعظيماً لله الذي ذكَّروا بآياته، وشعوراً بجلاله الذي يقابل بالسجود أول ما يقابل، تعبيراً عن الإحساس الذي لا يعبر عنه إلا تمريغ الجباه بالتراب وسبحوا بحمد ربهم . مع حركة الجسد بالسجود. وهم لا يستكبرون فهي استجابة الطائع الخاشع المنيب الشاعر بجلال الله الكبير المتعال.[1].

*****

١ – في ظلال القرآن:٥/٢٨١٢.

المبحث الثاني
الأسلوب الإنشائي فى آيات سجود التلاوة

أولا: قوله تعالى في سورة الحج: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ"الآية:١٨.

(أ) علاقة الآية بسياق السورة:

يغلب على السورة موضوعات التوحيد والتخويف من الساعة، وإثبات البعث، وإنكار الشرك. ومشاهد القيامة، وآيات الله المبثوثة في صفحات الكون.. بارزة في السورة والظلال الواضحة في جو السورة كلها هي ظلال القوة والشدة والعنف والرهبة. والتحذير والترهيب واستجاشة مشاعر التقوى والوجل والاستسلام، ولما كان جميع ما تقدم في السورة دالاً على أنه على كل شيء قدير، وأنه يفعل ما يريد، وعلى انفراده – تعالى– بالإلهية. وختم ذلك بأنه بكل شيء عليم لم يغب ولا يغيب شيء عنه، فاقتضى ذلك قيوميته، وكان بحيث يستعظم لكثرة الخلائق فكيف بأحوالهم، قرر ذلك في جواب من كأنه سأل فقال:" أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ..." فهي في معنى العلة، حيث بين أن أحوال المخلوقات كلها عاقلها وجمادها شاهدة بتفرده – تعالى– بالإلهية، فهي منقادة وخاضعةله.[1]

(ب) التحليل البلاغي:

قوله:" أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ" أي: أي ألم تعلم أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض، ف "رأى" هنا قلبية، وقد يعتريها بعض الإبصار الحسي وذلك بحسب الأنواع التي ذكرت بعدها كما في قوله تعالي:" وَكَثِيرٌ مِنَ

١ – ينظر نظم الدرر : ٢٥/١٣ بتصرف.

النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ " والاستفهام هنا تقريري يدل على التأمل والتفكر في ملكوت الله سبحانه والإخلاص له فى العبادة واستشعار كماله وجلاله، والمخاطب به النبي فعلم ذلك مقرر لديه، ويحتمل أن يكون إنكارياً وخوطب بها كل من يتأتى منه الرؤيا، حيث أنكر عليهم عدم علمهم بدلالة أحوال المخلوقات على وحدانية الله تعالي.

ووضع الظاهر لفظ الجلالة" اللَّهَ " موضع ضميره للتعظيم ولتربية المهابة والجلال، والتوكيد بـ " أَنَّ " يدل على تقرير السجود وتوكيده ، وأنه واقع منهم طوعا أو كرها.

وقوله: " يَسْجُدُ لَهُ "المراد بالسجود هو الانقياد التام لتدبيره تعالى بطريق الاستعارة ، حيث شبه الانقياد بأكمل أفعال المكلف فى باب الطاعة وهو السجود إيذانا بكمال التسخير والتذلل، وإنما حمل على المعنى المجازى إذ ليس فى كفرة الإنس ومردة الجن والشياطين وسائر الحيوانات والجمادات سجود طاعة وعبادة، وهو وضع الجبهة على الأرض خصوصا لله تعالى، وسجود الموجودات غير الإنسانية ليس إلا دلالة تلك الموجودات على أنها مسخرة بخلق الله، فاستعير السجود لحالة التسخير والانطياع. وأما دلالة حال الإنسان على عبوديته لله تعالى فلما خالطها إعراض كثير من الناس عن السجود لله تعالى، وتلبسهم بالسجود للأصنام كما هو حال المشركين حيث غطى سجودهم الحقيقي على السجود المجازي الدال على عبوديتهم لله، لأن المشاهدة أقوى من دلالة الحال فلم يثبت لهم السجود الذي أثبت لبقية الموجودات وإن كان حاصلا في حالهم كحال المخلوقات الأخرى..[1]

وقيد الفعل" يَسْجُدُ " بالجار والمجرور" لَهُ " وذلك للدلالة على انفراده تعالى بالألوهية، فهو وحده المستحق للخضوع والانقياد. ومضارعية الصيغة تدل على تجدد واستمرار سجودهم لله –تعالى.

و" مَنْ " في قوله:" مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ " إما خاصة بالعقلاء ويندرج تحتها خضوع غيرهم من باب أولى وإما عامة لهم ولغيرهم بطريق التغليب وهو الأولى ، لأنه الأنسب بالمقام لإفادته شمول الحكم لكل ما فيهما بطريق القرار فيهما أو بطريق الجزئية

١ – ينظر روح البيان: ١٦/٦ ، والتحرير والتنوير: ٢٢٦/١٧.

منهما، وفيها تعريض بالإنسان الذي يشذ عن هذا النسيج الكوني وذلك بعدم سجوده وانقياده لله تعالى. وعليه أن يبادر بأن يكون متآلفا مع هذه الكون فى التسخير والانقياد والخضوع له سبحانه.

وكرر"مَنْ" في قوله:" وَمَنْ فِي الْأَرْضِ " للتقرير والتأكيد على خضوع جميع المخلوقات لله تعالى.

والطباق بين قوله:"" السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ دلّ على أن الكون كله وجميع ما فيه عاقلا وغير عاقل خاضع لله ومسبح ومنقاد له تعالى شاهد بوحدانيته، وفي ذلك تعريض وتوبيخ لهؤلاء المشركين الذين يعبدون مخلوقات تشهد هي بوحدانيته وتسبح بحمده.وقوله:" مَنْ فِي السَّماواتِ "كناية عن الملائكة، وقوله:" وَمَنْ فِي الْأَرْضِ "كناية عن الإنسان ومؤمني الجن، وقدّمت " السَّماوات" على "الْأَرْضِ " لأنها كوكب علوي.

وقوله:" وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ "عطفت هذه المفردات بالواو وذلك لما بينها من مناسبة التماثل، حيث يوجد تناسب بينها فهي من مخلوقات الله تعالى الساجدة له والخاضعة والمنقادة لأمره. كما أن الشمس يقوم عليها أساس الحياة كذلك الجبال لولاها لمادت الأرض ولما صلحت للحياة ، والقمر ينعم به الإنسان بالراحة والسكون في ضوئه كذلك الشجر يستريح الإنسان بظله، وكما أن النجوم فى السماء كثيرة لا تتناهى فكذلك الدواب في الأرض لا منتهي لعددها، وهذا التقابل البديع والعجيب لا نجده إلا في هذا النظم المعجز.

وهي من قبيل عطف الخاص على العام للعناية بشأن الخاص، ولبيان أن هذه المخلوقات قد عُبِدت من دون الله تعالي، فقوله:" مَنْ فِي السَّماواتِ " يندرج تحته:" الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ "، وقوله:" مَنْ فِي الْأَرْضِ " يندرج تحته:" الْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ " أو من قبيل الإجمال والتفصيل ، وإذا كانت هذه المخلوقات غير العاقلة والتي قد عبدوها من دون الله – تعالى – هي ساجدة عابدة منقادة له وحده فما بال هؤلاء العقلاء المكلفين المشركين ؟! وفي ذلك ذم وتسفيه وتعريض بهم.ولذا قدمت هذه المخلوقات غير العاقلة على من يعقل وذلك في قوله تعالي:"وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ " لأن عبادتها أدلّ على التمجيد والخضوع لله – تعالى– ممن يعقل. فهذه الحشود كلها في موكب خاشع تسجد لله، وتتجه

إليه وحده دون سواه. إلا ذلك الإنسان فهو وحده الذي كفر وخالف هذا الموكب الخاشع. وقدّمت " الشَّمْسُ " على "الْقَمَر" لأهميتها وفضلها وكذلك قدّم"الْقَمَر" على "النُّجُوم".

و قوله:"وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ " أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة، وقد شغلت هذه الآية المفسرين والمعربين كثيراً فمن منع استعمال المشترك في معنييه الحقيقي والمجازي لم ينظم كثيراً في المفردات المتناسقة الداخلة تحت حكم الفعل وجعله مرفوعا بفعل مضمر يدل عليه قوله:" يسجد" أي: ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ، وذلك أن السجود المسند لغير العقلاء غير السجود المسند للعقلاء ، فلا يسوغ عطفه عندهم على ما قبله لاختلاف الفعل المسند إليهما في المعنى، فسجود العقلاء هو الكيفية المخصوصة المعروفة ، وسجود غير العقلاء هو الإذعان والطاعة ، وهذا هو الأولى لما فيه من الترغيب في السجود والطاعة ، وأما الذين أجازوا استعمال المشترك في معنييه الحقيقي والمجازي فهم ينسقونه على ما تقدم ولهم في تبرير ذلك تأويلات ثلاثة وهي:

أ– أن المراد بالسجود هو المعنى العام المشترك بين العقلاء وغيرهم، وهو الخضوع والإذعان فيكون الاشتراك معنويا.

ب– أنه لا يمنع الاشتراك اللفظي وقد يشترك المجاز والحقيقة.

ج– أنه يجوز الجمع بين المجاز والحقيقة.

ووقف فريق من المعربين موقفاً ثالثاً فلم يرفعوه بفعل مضمر، لأن حذف فعل الفاعل غير وارد عندهم، ولم ينسقوه على ما تقدم بل أعربوه مبتدأ وخبره محذوف تقديره: مطيعون أو مجزيون أو مثابون أو نحو ذلك، و"من الناس" صفة "كثير" ويجوز أن يجعل "مِنَ النَّاسِ" خبراً له، أى: من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون والمتقون. ويجوز أن يبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب، فيعطف " كثير" على "كثير"، ثم يخبر عنهم بـ "حقّ عليهم العذاب" ، كأنه قيل: وكثير وكثير من الناس حق عليهم العذاب.[1]

١ – ينظر تفسير الكشاف:١٤٩/٣ ،وتفسير أبي السعود: ١٠٠/٦ ، وروح المعاني: ١٢٦/٩ ، والبحر المحيط: ٤٩٤/٧، وإعراب القرآن وبيانه:٤١٤/٦.

وقوله:" وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ " أي : استحق العذاب وثبت له وذلك لكفره وعدم سجوده، وذلك كناية عن ترك سجودهم وعبادتهم لله وحده، والجملة معترضة بالواو، وإسناد" حَقَّ " لـ" الْعَذابُ " مجاز عقلي علاقته المفعولية، ففاعل العذاب هو الله سبحانه، وأخر هؤلاء في الذكر عما قبلهم لأنهم أهل كفر ومعصية، ولذا أخروا ، فالطاعة تقدّم على المعصية.

"ويجوز أن يجعل « وَكَثِيرٌ » تكريراً للأول مبالغة في تكثير المحقوقين بالعذاب، وقال: «عَلَيْهِ» بدلا من «عليهم» إشارة إلى أن هذا الصنف من الناس الذي أبى السجود لله، هو فى عداد غير العقلاء.. «أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ»[1] فهم وإن كانوا أعدادا كثيرة، أشبه بكيان واحد يجمع كتلة متضخمة من الضلال والفساد.."[2]

وقوله:" وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ " اعتراض ثان بالواو أي : من يذله الله فلا يكرمه أحد، لأن الله فعّال لما يريد، ولم يذكر كرمه بتوفيقه للمؤمنين لأن السياق لإظهار القدرة، وإظهارها في الإهانة أتم ، ففيها اكتفاء ، وفصل قوله:" إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ " عما قبله وذلك لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، فهو بمثابة إجابة عن سؤال ، قد يرد على لسان بعض الناس.. وهو: لماذا أهان الله هؤلاء الذين لم يؤمنوا به؟

وتصلح هذه الجملة أن تكون جوابا عن هذا السؤال: «إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ » ! فمن كان له حيلة فليحتل، ومن كان له مع الله شيء فليأت به! .. فلتخرس الألسنة إذن، وليحمد المؤمنون الله أن هداهم إلى الإيمان، وليدع الضالون ربّهم أن يهديهم..

وحذف مفعول" يَشاءُ " للدلالة على مطلق قدرته وإرادته وعمومهما، فيكرم من يشاء ويهين من يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء– سبحانه.

والجمع بين الإهانة والتكريم طباق استدعاه مقتضى الحال، وتنكير" مُكْرِمٍ " لتأكيد النفي فى" فَما لَهُ "كما أن "مِنْ " فيه لاستغراق النفي جميع أفراد المنفي. وفي قوله:" يُهِنِ " كناية عن إنزال العقاب الوفاق بكل مجرم حسب إجرامه من المعاصي الكبيرة والكفر

---

١ – الأعراف: ١٧٩.

٢ – ينظر: تفسير البيضاوى : ٦٨/٤، والتفسير القرآني للقرآن: ١٠٠٧/٩.

المستمر، وقوله:" إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ " تذييل مقرر لمعنى ما قبله، وقد أكد الخبر فيه بـ " إِنَّ " وإسمية الجملة، لأن مضمون الخبر حقيقة عظيمة، فمن حقها أن يعبر عنها بأسلوب فخم عظيم مثلها.

والآية من الاحتباك: إثبات السجود في الأول دليل على انتفائه في الثاني، وذكر العذاب في الثاني دليل على حذف الثواب في الأول."[1].

ثانيا: قوله تعالى في سورة الحج: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " الآية: ٧٧.

(أ) علاقة الآية بسياق السورة:

بهذه الآية وما بعدها تختتم السورة الكريمة.. وبهذا الختام، يلتقى بدؤها مع ختامها، كما يلتقى ختامها مع بدء السورة التي بعدها، وهى سورة "المؤمنون" .فقد بدأت السورة هكذا: " يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ.." إنه نذير صارخ للناس جميعا، أن يأخذوا لأنفسهم من هذا اليوم العظيم، وأن يعملوا على ما ينجيهم من أهواله المهولة المفزعة..وقد استجاب أناس لهذا النّداء، فآمنوا بالله، وسعوا إلى مرضاته، ليخلصوا بأنفسهم من شر هذا اليوم العظيم..ثم كانت السورة كلها بعد ذلك، دعوة إلى الله وتوحيده ، وإلى كشف الطريق إليه، وإرسال النذير بعد النذير، إلى الضالين، والمشركين، الذين أمسكوا على ما فى قلوبهم من كفر وضلال.وكانت حصيلة هذه النُّذر، هؤلاء المؤمنين الذين دخلوا فى دين الله، واستجابوا لرسول الله.. فكان أن دعاهم الله سبحانه وتعالى إليه، وخصّهم بخطابه، ورفدهم بوصاياه، ليثبتوا على الإيمان، وليعملوا على طريق الإيمان، وليغرسوا فى مغارسه. فقال سبحانه، مخاطبا عباده المؤمنين: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ... الآية.[2]

---

١ – ينظر التفسير البلاغي للاستفهام فى القرآن الكريم:٣٩٢/٢، ونظم الدرر: ٢٦/١٣.

٢ – ينظر التفسير القرآني للقرآن: ١١٠٢/٩.

(أ) التحليل البلاغي:

بدأت الآية بهذا النداء" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" وذلك لينبه هذه الفئة المؤمنة إلى ما سيلقى عليهم بعده ، فإذا جاءت الأوامر بعد ذلك وجدت نفوسهم يقظة لما سيلقى عليها فتتمكن فيها أيما تمكن.

وتخصيص المؤمنين بالذكر لا يدل على نفي ما أمروا به عما عداهم بل قد دلت هذه الآية على كونهم على التخصيص مأمورين بهذه الأشياء ودلت سائر الآيات على كون جميع البشر مأمورين بها. ويمكن أن يقال فائدة التخصيص أنه لما جاء الخطاب العام مرة بعد أخرى ثم إنه ما قبله إلا المؤمنون خصّهم الله تعالى بهذا الخطاب ليكون ذلك كالتحريض لهم على المواظبة على قبوله وكالتشريف لهم في ذلك الإقرار والتخصيص.[1]

وقوله:" ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا" أي في صلواتكم حيث أمرهم بهما لأنَّهم ما كانوا يفعلونَهما أول الإسلام، أو صلّوا حيث عبّر عن الصَّلاةِ بهما ففيه مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث أطلق " الركوع والسجود وأراد الصلاة" وخصّهما بالذكر لأنهما ركنا الصلاة البارزان. ويكني عن الصلاة بالركوع والسجود ليمنحها صورة بارزة، وحركة ظاهرة في التعبير، ترسمها مشهدا شاخصا، وهيئة منظورة. لأن التعبير على هذا النحو أوقع أثرا وأقوى استجاشة للشعور .[2]

ووصل بين هذه الجمل" ارْكَعُوا ، وَاسْجُدُوا ، وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ، وَافْعَلُوا الْخَيْرَ" لما بينهما من التوسط بين الكمالين مع عدم المانع فقد اتفقت في الإنشائية لفظا ومعنى ، وفي ذلك بيان أن الإيمان ليس مجرد كلمة ينطق بها اللسان، وإنما هو قول، وعمل. هو اعتقاد بالجنان وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح والأركان. كما أن في تفريق وتنويع هذه المأمورات مراعاة لقلب المؤمنين من الخوف عند الأمر بالصلاة فقسّمها ليكون مع كلّ لفظة ومعنى نوع من التخفيف، كما أن في ذلك مزيد تلذذ وإيناس لهؤلاء المؤمنين الطائعين الذين يجدون في استجابتهم لأوامر الله سعادة وقربى لهم. وفي تخصيص الصلاة بالذكر بيان لأهميتها وصلاح حال المؤمن بصلاحها وبأدائها وبالمحافظة عليها وبالخشوع فيها، ولذا خصّت بالذكر لأنها

---

١ – ينظر مفاتيح الغيب :٢٣/٢٥٤.

٢ – ينظر تفسير أبي السعود:٦/١٢١، وفي ظلال القرآن:٤/٢٤٤٥.

أهم العبادات ، ثم عطف عليها ما هو أعم منها فقال:" وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ " وفيه وجوه: " أحدها: اعبدوه ولا تعبدوا غيره وثانيها: واعبدوا ربكم في سائر المأمورات والمنهيات كالصوم، والزكاة، والحج ، والجهاد فى سبيله، والسعى فى طلب الرزق.. فكلها عبادات وطاعات وقربات.. وثالثها: افعلوا الركوع والسجود وسائر الطاعات على وجه العبادة ، لأنه لا يكفي أن يفعل فإنه ما لم يقصد به عبادة الله تعالى لا ينفع في باب الثواب ، فلذلك عطف هذه الجملة على الركوع والسجود ، والعبادة أشمل من الصلاة. فعبادة الله تشمل الفرائض كلها وتزيد عليها كذلك كل عمل وكل حركة وكل خالجة يتوجه بها الفرد إلى الله. فكل نشاط الإنسان في الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادة متى توجه القلب به إلى الله. حتى لذائذه التي ينالها من طيبات الحياة بلفتة صغيرة تصبح عبادات تكتب له بها حسنات. وما عليه إلا أن يذكر الله الذي أنعم بها، وينوي بها أن يتقوى على طاعته وعبادته فإذا هي عبادات وحسنات، ولم يتحول في طبيعتها شيء، ولكن تحول القصد منها والاتجاه! [1]

ثم أمرهم بأعمّ من العبادة فقال:" وَافْعَلُوا الْخَيْرَ" لأن الصلاة نوع من أنواع العبادة والعبادة نوع من أنواع فعل الخير، لأن فعل الخير ينقسم إلى: خدمة المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لأمر الله ، وإلى الإحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ويدخل فيه البر ، والمعروف ، والصدقة على الفقراء ، وحسن القول للناس فكأنه سبحانه قال كلفتكم بالصلاة بل كلفتكم بما هو أعم منها وهو العبادة بل كلفتكم بما هو أعم من العبادة وهو فعل الخيرات.[2] فبدأ بخاص ثم بعام ثم بأعم، وكل ذلك يبين أهمية وعِظم وفضل الخاص وهو الصلاة، وهذا لون من الترقي في الأسلوب.

ولما كان الركوع والسجود والعبادة وفعل الخير من التكاليف الشاقة ناسب ختم الآية برجاء الفلاح فقال:" لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " والرجاء المستفاد منها مستعمل في معنى تقريب الفلاح لهم إذا بلغوا بأعمالهم الحد الموجب للفلاح فيما حدد الله تعالي فهذه حقيقة

١ – ينظر مفاتيح الغيب: ٢٥٤/٢٣، وفي ظلال القرآن :٢٤٤٥/٤.
٢ – ينظر المرجع السابق نفسه.

الرجاء. وأما ما يستلزمه الرجاء من تردد الراجي في حصول المرجو فذلك لا يخطر بالبال لقيام الأدلة التي تحيل الشك على الله تعالى.[1]

وقد استعير حرف الرجاء " لَعَلَّ " لإرادة الله – تعالى– فقد شبه طلبهم الفلاح وإن كانوا مترددين في تحققه برجاء من يطلب أمراً ، واستعيرت " لَعَلَّ " للمبالغة في قرب حصول الفلاح والفوز برضوان الله تعالى ، وفيها إيماء لهم بألّا يتكلوا على أعمالهم ولا يغتروا بها، فعليهم أن يمتثلوا لهذه الأوامر وأن يرجوا الفلاح والفوز والقبول من الله تعالي .

والآية من قبيل إيجاز القصر فألفاظها قليلة إلا إنها اشتملت على كثير من المعاني ، فالإيمان ليس كلاما باللسان وإنما هو تصديق بالجنان ونطق باللسان وعمل بالأركان. وقد اقترن فيها السجود بالركوع والعبادة وفعل الخير، فبدئت بخاص ثم بعام ثم بأعم منه للدلالة على عظم الصلاة وأهمية إخلاص العمل لله تعالى.

ثالثا: قوله تعالى في سورة الفرقان: " وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَزادَهُمْ نُفُوراً " الآية: ٦٠.

(أ) علاقة الآية بسياق السورة:

السورة تبدو كلها وكأنها إيناس لرسول الله ﷺ وتسرية، وتطمين له وتقوية وهو يواجه مشركي قريش، وعنادهم له، وتطاولهم عليه، وتعنتهم معه، وجدالهم بالباطل، ووقوفهم في وجه الهدي وصدهم عنه. فهم يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم، ويتظاهرون على ربهم وخالقهم، ويتطاولون في حقه إذا دعوا إلى عبادة الله الحق.. ولما ذكر في الآية السابقة عليها، أنه– جل شأنه– هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام، وأنه استوى على العرش، برحمانيته، ثم دعا– سبحانه– من غابت عنه هذه الحقيقة من رحمانية الرحمن، أن يسأل أهل العلم والخبرة في هذا المقام.. فناسب ذلك أن يدعو إليه– سبحانه– الضالين، باسم "الرحمن" الذي له في كل مخلوق أثره، وله في كل حيّ نفحة من رحمته.. وبهذا يظهر ما عندهم من علم بالرحمن، سواء أكان هذا العلم مما أدركوه بعقولهم، وعرفوه بنظرهم، أو أخذوه عن أهل العلم والخبرة.. وقد كشف هذا الامتحان، عن جمود

١ – ينظر التحرير والتنوير:١٧/٣٤٦.

هؤلاء الضالين على ضلالهم، وأنهم لم يهتدوا إلى هذه الحقيقة بأنفسهم، ولم يسألوا عنها أهل الذكر..[1]

(ب) التحليل البلاغي:

قوله:" وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ "أي إذا قال النبي ﷺ لكفار مكة اسجدوا للرحمن شكراً له على ما أنعم به عليكم من النعم التي تتنعمون بها، وفي بناء الفعل " قِيلَ " للمجهول دلالة على أنهم لا يمتثلون لقول أيّ قائل جحوداً منهم وإنكاراً.

وقوله:" اسْجُدُوا " الأمر هنا على حقيقته حيث أمروا بالخضوع لله تعالى وعبادته والصلاة له حيث عبر عنها بالسجود، فيكون فيها مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث أطلق السجود وأراد الصلاة، لأن السجود من أعظم أركانها، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

ويحتمل أن يراد " بالسجود الذي أمروا به سجود الاعتراف له بالوحدانية وهو شعار الإسلام، ولم يكن السجود من عبادتهم وإنما كانوا يطوفون بالأصنام، وأما سجود الصلاة التي هي من قواعد الإسلام فليس مرادا هنا إذ لم يكونوا ممن يؤمر بالصلاة ولا فائدة في تكليفهم بها قبل أن يسلموا."[2] ويكون السجود هنا كناية عن دعوتهم للإسلام.

ولما جرى وصف الله تعالى بـ "الرَّحْمنِ" مع صفات أخر استطرد ذكر كفر المشركين بهذا الوصف حيث قالوا منكرين له مع كمال ظهوره مستفهمين على سبيل الاستغراب والاستبعاد: "قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ" فالاستفهام مراد به الاستبعاد والاستغراب والتشكيك ، إذ كيف ينهاهم النبي ﷺ عن اتخاذ إلهين وهو يتخذ ويدعو الله ويدعو الرحمن كما بيّن القرآن ذلك في قوله تعالى:" قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى "[3] وهم يعلمون أن الرحمن هو الله، وأن تجاهلهم له تشكيكاً وإنكاراً ، "ويجوز أن يكون سؤالاً عن المسمى به، لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم، والسؤال عن المجهول بـ "مَا" . ويجوز أن يكون سؤالا عن معناه، لأنه لم يكن مستعملا في كلامهم كما استعمل الرحيم والرحوم

١ – ينظر التفسير القرآني للقرآن: ٥٢/١٠، وفي ظلال القرآن:٥/٢٥٤٤.
٢ – التحرير والتنوير:١٩/٦٢.
٣ – سورة الإسراء: ١١٠.

والراحم. أو لأنهم أنكروا إطلاقه على الله تعالى، والذي يظهر أنهم لما قيل لهم اسجدوا للرحمن فذكرت الصفة المقتضية للمبالغة في الرحمة والكلمة عربية لا ينكر وضعها، أظهروا التجاهل بهذه الصفة التي لله مغالطة منهم ووقاحة فقالوا:"وَمَا الرَّحْمنُ" وهم عارفون به وبصفته الرحمانية"[1]

وقد ساقوا المعلوم عندهم وهو الله تعالى مساق المجهول وذلك بقولهم:" وَمَا الرَّحْمنُ ؟" تجاهلاً وعناداً وكفراً.

وقوله:" أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا " استفهام مراد به النفي والامتناع، أي لا نسجد لشيء مما تأمرنا أنت به، وفي هذا دليل على أن الامتناع عن السجود ليس للذات المسجود لها، بل لمن أمرهم بالسجود ، فهم لن يسجدوا للرحمن ، لأن الذي يدعوهم للسجود بشر مثلهم وهو النبي ﷺ وما ذلك إلا لعنادهم وتكبرهم وعدم خضوعهم لله خالقهم.

وقرئ " يَأْمُرُنا " بالياء من تحت إما على إرادة محمد والكناية عنه بالغيبة، وإما على إرادة رحمان اليمامة.[2]

وجاء طباق السلب بين قوله:" اسْجُدُوا " وقوله:" أَنَسْجُد" المبدوء بهمزة الاستفهام الذي يحمل معنى النفي مؤكداً لعنادهم وضلالهم، وموضحاً لهذا المعنى في صورة حسنة بديعة.

وبين قوله:" اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ" وقوله: " مَا الرَّحْمنُ أَنَسْجُدُ " عكس وتبديل بيّن المعنى ووضحه، حيث تقدم الفعل" اسْجُدُوا " على الاسم" الرَّحْمنِ " في أمرهم بالسجود، وفي الاستفهام تقدّم الاسم " الرَّحْمنُ " على الفعل " أَنَسْجُدُ " لأنهم ينكرون تسمية الله سبحانه بالرحمن، وأن يكون الآمر لهم بالسجود له هو النبي ﷺ.وفي هذا الخبر تعجيب من كفرهم وعنادهم ، وذم لهم على تركهم الامتثال لأمر الله لهم بالسجود . وهذه " صورة كريهة من صور الاستهتار والتطاول تذكر هنا للتهوين من وقع تطاولهم على الرسول ﷺ فهم لا يوقرون ربهم، فيتحدثون بهذه اللهجة عن ذاته العلية، فهل يستغرب من هؤلاء أن يقولوا عن الرسول

١ – ينظر الكشاف: ٢٨٩/٣، والبحر المحيط:١٢٢/٨.
٢ – ينظر الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر:٩٩/٣.

ما قالوا؟ وهم ينفرون من اسم الله الكريم، ويزعمون أنهم لا يعرفون اسم "الرحمن" ويسألون عنه بـ "ما"، زيادة في الاستهتار. "قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ؟". ولقد بلغ من تطاولهم واستخفافهم أن يقولوا: ما نعرف الرحمن إلا ذاك باليمامة. يعنون به مسيلمة الكذاب!" [1]

وقوله:"وَزَادَهُمْ نُفُورًا" النَّفْرُ: الانْزِعَاجُ عن الشيءِ وإلى الشيء، كالفَزَعِ إلى الشيء وعن الشيء.[2] أي: زادهم الأمر بالسجود وذكر الرحمن نفوراً عن الدين وبعداً عنه، وقد سجد النبي ﷺ والصحابة معه مبالغة في مخالفته لهم بالفعل ، ولما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا في ناحية المسجد مستهزئين. كما أن قوله:" زَادَهُمْ" يدل على أن النفور من السجود سابق قبل سماع اسم الرحمن.فهم نفروا أولاً، لأنهم لا يعرفون الرحمن، وهم نفروا ثانياً، لأن الذي يدعوهم إليه بشر، وليس ملكاً من الملائكة، كما كانوا يقترحون![3]

وهو كناية عن بعدهم وامتناعهم وتعجيب من شأنهم، والضمير المستتر في قوله:" زَادَهُمْ" عائد إلى القول المأخوذ من قوله:" وَإِذا قِيلَ لَهُمُ" أي: زاد الأمر بالسجود للرحمان هؤلاء نفوراً، وإسناد زيادة النفور إلى القول مجاز عقلي ، علاقته السببية لأنه سبب تلك الزيادة في النفور، كما أن تنكير قوله:" نُفُورًا " يدل على عظم ما أصابهم وحلّ بهم من التباعد والفرار، وقد كان يتطلب منهم الإقبال على الله والسجود والامتثال له شكراً على نعمائه ورجاء ثوابه.

رابعا: قوله تعالى في سورة فصلت: " وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ " الآيتان: ٣٨,٣٧.

(أ) علاقة الآيتان بسياق السورة:

١ – في ظلال القرآن: ٢٥٧٥/٥.
٢ – المفردات : (نفر).
٣ – ينظر التفسير القرآني للقرآن: ٥٢/١٠ بتصرف.

قضية العقيدة بحقائقها الأساسية هي التي تعالجها هذه السورة.. الألوهية الواحدة. والحياة الآخرة. والوحي بالرسالة. يضاف إليها طريقة الدعوة إلى الله وخلق الداعية. وكل ما في السورة هو شرح لهذه الحقائق، واستدلال عليها. وعرض لآيات الله في الأنفس والآفاق، وتحذير من التكذيب بها، وتذكير بمصارع المكذبين في الأجيال السابقة، وعرض لمشاهد المكذبين يوم القيامة. ولما بين في الآية السابقة أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى أردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته، تنبيهاً على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته، فهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات فقال:" وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ... الآية حيث بيّن أن المكذبين من الجن والإنس هم وحدهم الذين لا يسلمون بهذه الحقائق ولا يستسلمون لله وحده بينما السماء والأرض والشمس والقمر والملائكة ... كلهم يسجدون لله ويخشعون ويسلمون ويستسلمون.[1]

(ب) التحليل البلاغي:

قوله:" وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ " أى: من جملة الدلائل الدالة على قدرة الصانع الحكيم الليل المظلم والنهار المبصر المضيء وذلك في حدوثهما وتعاقبهما وإيلاج كل منهما في الآخر وكذا الشمس المشرقة في النهار والقمر المنير في الليل ، واختلافهما في قوة النور والعظم ، والتعبير بـ "مِنْ" التي تفيد التبعيض يدل على أن هذا جزء قليل من آيات كثيرة تدل على وجود الله ووحدانيته وقدرته.

وقدّم ذكر الليل تنبيهاً على أن الظلمة عدم والنور وجود، والعدم سابق على الوجود، فهذا كالتنبيه على حدوث هذه الأشياء ، وناسب ذكر الشمس بعد النهار، لأنها سبب لتنويره ويظهر العالم فيه، ولأنها أبلغ في التنوير من القمر، ولأن القمر فيما يقولون مستفاد نوره من نور الشمس.[2]

١ – ينظر في ظلال القرآن: ٥/٣١٠٥، ومفاتيح الغيب:٢٧/٥٦٥.
٢ – ينظر البحرالمحيط: ٩/٣٠٧ بتصرف.

وهذا يوحي بالنظر والتفكر في هذا القرآن المنظور ، وهو ذاك الكون العظيم وما خلق الله فيه من آيات سابحات بديعات تدل على وحدانية رب الأرض والسموات ، والدعاة إلى الله تعالى هم من يستطيعون قراءة وفهم سطور هذا القرآن المنظور، ولذا كان لزاماً عليهم أن يبصّروا من يدعونهم إلى آيات الله في كونه، ليزداد يقينهم بخالقهم فيؤمنوا به ويعبدوه ، ولا يغرنّهم عظم هذه الآيات فيعبدوها من دون خالقها أو يعبدوها لتقربهم إليه. ولذا جاء النهي في قوله:" لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ" ، وقوله"لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ..." جملة معترضة فيها مزيد تأكيد على نفى الشريك لله تعالي. وأفاد النهي في قوله" لا تَسْجُدُوا " والأمر في قوله" وَاسْجُدُوا " القصر، فهو بمنزلة النفي والاستثناء أي: لا تسجدوا إلا لله. وعطفت جملة الأمر على النهي للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع فقد اتفقتا في الإنشائية لفظا ومعنى.

"وتقديم النهي عن عبادة الشمس على النهي عن عبادة القمر فيه إشارة إلى أن عبادتها كانت أكثر شيوعاً، وفي الآية ما يدل على رسوخ عبادة القمر وذلك بإعادة " لا " الناهية في قوله:" وَلا لِلْقَمَرِ "وكان يمكن أن يقال : لا تسجدوا للشمس والقمر ، ولكن هذا التكرار أكد أنه نهى مستقل، وفيها دلالة على قدم السجود للكواكب في أمة العرب"[1]

ومجيئ الأمر بعد النهي تأكيد للنهي عن السجود لهن، ثم هو ترتيب بالغ الدقة في وضوح شديد وقرب بالغ ، فالنهي عن السجود للمخلوق نهي طبعي والأمر بالسجود للخالق أمر طبعي، كما أن وراء هذا النهي وهذا الأمر تكريماً ظاهراً للمخاطبين بالنهي والأمر، لأن الأكرم للمخلوق أن يسجد للخالق وليس لمخلوق مثله، وليس لمخلوق هو أكرم منه، فالله سبحانه سخر الشمس والقمر والليل والنهار لهذا الإنسان فكيف يسجد لكائنات سخرها الله له؟!. [2]

والضمير في "خَلَقَهُنَّ" لليل والنهار والشمس والقمر، لأنّ حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث. يقال: الأقلام بريتها وبريتهنّ أو لما قال:"وَمِنْ آياتِهِ" كن في معنى

١ – آل حم غافر– فصلت دراسة في أسرار البيان:٤٣٨,٤٣٧.
٢ – ينظرالمرجع السابق نفسه بتصرف.

الآيات، فقيل:خلقهنّ. وفيه إشارة إلى تناهي سفولها عما أهلوها له وذم عابديها بالإفراط في الغباوة، ويمكن أن يكون عد القمر أقماراً لأنه يكون تارة هلالاً وأخرى بدراً وأخرى محواً، فلذلك جمع إشارة إلى قهرهما بالتغيير له في الجرم ولَمِّهما بالتسيير، ولذلك عبر بضمير المؤنث الذي يكون لجمع الكثرة مما لا يعقل.أو يكون ذلك بحسب جنسهما وأخواتهما من الكواكب والنجوم وتحدث عنهن بضمير المؤنث العاقل ليخلع عليهن الحياة والعقل، ويصورهن شخوصا ذات أعيان! [1]

وقوله:" إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ " أي: تخصونه بالعبادة ولا تشركون معه أحدا. وقدّم المفعول"إِيَّاهُ" على الفعل:" تَعْبُدُونَ " فأفاد الاختصاص. وفي مجيئ " إِنْ " التي تدخل على الشرط المشكوك فيه دلالة على أن كونهم يخصّون الله بالعبادة أمر فيه شك وريب، وأنهم كانوا يسجدون للشمس والقمر ويعبدون الله تعالى ، وذلك ظناً منهم أن في السجود لهذه الكواكب تقرباً إلى الله تعالي. فبيّن لهم أنهم إذا أرادوا أن يخصوه بالعبادة فعليهم ألّا يسجدوا لهذه الكواكب.

وقوله:" فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ" أي: إن استكبر هؤلاء عن عبادة الله وإفراده بالعبادة فهناك الملائكة المقربون فطرهم الله تعالى على طاعته وعبادته وتنزيهه ولا يملّون من ذلك بل يزدادون قرباً وإيناساً بالله تعالي. وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ عمّا يلاقيه من قومه فلا يحزن على استكبارهم وعنادهم.

ومجيئ أداة الشرط "إِنِ" التي تكون للمعنى النادر والمشكوك فيه إشارة إلى أن هذا الاستكبار الأصل ألا يكون إلا على سبيل الشك، لأن الذي دعاهم إليه من السجود لله تعالى هو المتلائم مع الفطرة والعقل ، فلا يسجد مخلوق لمخلوق.

وقوله:" اسْتَكْبَرُوا " توحي بالسخرية والاستهزاء من هؤلاء، فمن يستكبر على السجود للخالق ويسجد للمخلوق ليس جديراً بأن يستعلي وإنما هو جدير بأن يَسْفُل. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه قوله:" فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ " والتقدير: فلا يحزنك أو فلا تبتئس. ولما استكبر هؤلاء عمّا يرفع قدرهم وانصرفوا إلى ما تنحط به

---

١ – ينظر الكشاف:٤/٢٠٠ ، ونظم الدرر:١٧/١٩٣ ، في ظلال القرآن: ٥/٣١٠٥.

آدميتهم كانوا جديرين بالانصراف عنهم وتغييبهم عن مقام الخطاب الذي كان نهياً عن السجود للمخلوق وأمراً بالسجود للخالق ولذا جاء هذا الالتفات من الخطاب في قوله:" لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ.." إلى الغائب في قوله:" فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا " . وفي تعريف الملائكة بالموصولية إشارة إلى تكريمهم وتشريفهم بدلالة الصلة وهى قوله:" عِنْدَ رَبِّكَ " وليست العندية مكانية فالله منزه عن ذلك وإنما هي دلالة على التشريف والتقريب والرضى والكرامة. وفي ذكر "اللَّيْلِ وَالنَّهار" كناية عن ديمومة تسبيحهم لله تعالى، فلا يوجد عندهم ليل أو نهار، وحالهم أنهم لا يسأمون أو يملّون من ذلك ، وقد أكّد نفي السآمة عنهم بتقديم المسند إليه" هُمْ " على خبره الفعلي المنفي" لا يَسْأَمُونَ " فهم كلما ازداوا ذكراً ازدادوا شوقاً وقرباً إلى الله تعالى ، وهم فى طاعة دائمة لا يكلون ولا يملون ولا يستكبرون ولربهم عابدون.[1]

وهذا تذييل يقرر ويؤكد ما ذكر قبله، فنفي السآمة عنهم فيه تأكيد لاستمرارهم في عبادة الله ومداومتهم عليها بالليل والنهار .

والآية من الاحتباك: حيث ذكر الاستكبار أولاً دليلاً على حذفه ثانياً والتسبيح ثانياً دليلاً على حذفه أولاً، وسر ذلك أنه ذكر أقبح ما لأعدائه وأحسن ما لأوليائه.[2]

خامسا: قوله تعالى في سورة النجم: " أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا" الآيات:٥٩-٦٢.

(أ) علاقة الآيات بسياق السورة:

موضوع السورة الذي تعالجه هو موضوع السور المكية على الإطلاق: العقيدة بموضوعاتها الرئيسية: الوحي والوحدانية والآخرة. والسورة تتناول الموضوع من زاوية معينة تتجه إلى بيان صدق الوحي بهذه العقيدة ووثاقته، ووهن عقيدة الشرك وتهافت أساسها الوهمي، وتذم الهوى لإنتاجه الضلال والعمى بالإخلاد إلى الدنيا ،وتمدح العلم لإثماره الهدى في الإقبال على الأخرى لأنها دار البقاء في السعادة أو الشقاء، والحث على اتباع النبي ﷺ في تحذيره من الآخرة ، فالمشركون لما سمعوا الحديث عن قرب يوم الحساب

١ – ينظر آل حم غافر– فصلت دراسة في أسرار البيان:٤٣٩,٤٤٠. بتصرف
٢ – ينظر نظم الدرر:١٩٣/١٧.

والجزاء، عجبوا لهذا، واستنكروه، وجعلوه حديث سخرية واستهزاء بينهم. وجاءت هذه الآيات لتنكر عليهم ما كان منهم ، فلو علموا ما يكون في هذا اليوم لما كان منهم إلا البكاء فقال:" أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ... " الآيات.[1]

(ب) التحليل البلاغي:

قوله:" أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ " قيل: من القرآن، ويحتمل أن يقال: هذا إشارة إلى قوله تعالى:"أَزِفَتِ الْآزِفَةُ "[2] فإنهم كانوا يتعجبون من حشر الأجساد وجمع العظام. بعد الفساد.

فبعد أن ساق النظم الكريم صوراً من مصارع الأمم التى عتت عن أمر ربها وكذبت رسلها وذلك تهديداً وتخويفاً لمشركي العرب لعلهم يرعوون عما هم فيه من كفر وعناد، حيث كانوا يستهزئون بما يَقُصّ عليهم القرآن من أخبار السابقين ومن أمور الآخرة والبعث بعد الموت، فجاءت هذه الآية لتنكر عليهم هذه المواقف، فالاستفهام في الآية للإنكار ، إنكار وقوع العجب من المشركين ، وتوبيخ لهم على هذا العجب ، لأنهم لو كانوا يعقلون لبكوا من خشية الله بدل أن يضحكوا ، ومعنى العجب هنا الاستبعاد والإحالة ، أو كناية عن الاستهزاء والإنكار، لأن العجب لا يكون إلا من الأشياء غير المألوفة، وتقديم الجار والمجرور" مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ " على قوله:" تَعْجَبُونَ" حيث لم يقل: أَتَعْجَبُونَ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ؟ لأن محط الإنكار ليس هو مجرد العجب بل كون الحديث المشار إليه هو المتعجب منه، ، فهذا الحديث ليس أهلاً لأن تقابلوه بالضحك والاستهزاء والتكذيب ولا لئلا يتوب سامعه، أي لو قابلتم بفعلكم كلاماً غيره لكان لكم شبهة في فعلكم، فأما مقابلتكم هذا الحديث بما فعلتم فلا عذر لكم فيه.

ولم يقل: أفمن هذا القرآن؟ لأن نفس القرآن يلزم الإعجاز، ولفظ الحديث لا يلزمه، فإذا وبخوا على تعجبهم منه لَا مع استحضار كونه قرآنا فأحرى أن يوبخوا في تعجبهم منه مع استحضار ذلك، أي لو قدرنا أنه كسائر الحديث الذي يتكلمون به فمنكم عدم التعجب

١ – ينظر المرجع السابق: ٨٢/١٩ ، وفي ظلال القرآن: ٣٤٠٥/٦.
٢ – النجم: ٥٧.

منه، فأحرى أن لَا يتعجبون منه، وهو مباين لجنس كلامهم ، وقدّم التعجب على الضحك، لأن التعجب أعم، قد يكون معه ضحك وقد لَا يكون.[1]

ومضارعية الصيغ في قوله:" تَعْجَبُونَ ، وَتَضْحَكُونَ ، وَلا تَبْكُونَ" إشارة إلى أن هذا سلوكهم يتكرر منهم مرة بعد أخرى ، ديدنهم لا ينفكون عنه ، فهم لم يهتدوا إلى الحق، وفى ذلك زيادة تشنيع عليهم.

والمقابلة بين :" تَضْحَكُونَ ، و تَبْكُونَ" بينت حالهم واستهزاءهم ، فقد استعير الضحك للاستهزاء والسخرية ، ونفى بكائهم كناية عن عدم خوفهم من الله تعالى ، فمن خافه بكى من خشيته ، وخرّ ساجداً باكياً لسماع آياته وامتثال أوامره. وهذا يوحي بأن البكاء والخشوع وحضور القلب حق علي الإنسان عند سماع القرآن.

وقوله:" وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ " أي: وأنتم لاهون عما فيه من العِبر والذكر، معرضون عن آياته؛ يقال للرجل: دع عنا سُمودَك، يراد به: دع عنا لهوك، يقال منه: سَمَدَ فلان يَسْمُد سُمُودا. والسَّامِدُ: اللّاهي الرّافع رأسه، من قولهم: سَمَدَ البعير في سيره.[2]

والواو حالية ، أى والحال أنكم مستمرون فى لهوكم وكبركم وإعراضكم ، فهو ينكر عليهم عدم بكائهم واستمرارهم في لهوهم وغيهم ، واسمية الجملة والإتيان باسم الفاعل" سَامِدُونَ " دون المضارع" تسمِدُونَ " فيه دلالة على ثبوت ودوام تلك الحالة التي كانوا عليها من اللهو والتكبر والإعراض عن كل ما جاء به القرآن وأخبر عنه وعمّا يكون في الأخرة.

وفي الآيات مراعاة للفاصلة" تَعْجَبُونَ ، تَضْحَكُونَ ، تَبْكُونَ ، سَامِدُونَ " مما كان له جمال الوقع على الأسماع ، وعظيم الأثر في المعنى.

ولما وبخ سبحانه المشركين على الاستهزاء بالقرآن والضحك منه والسخرية به وعدم الانتفاع بمواعظه وزواجره أمر عباده المؤمنين بالسجود لله والعبادة له فقال:" فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا " والفاء لترتيب الأمر بالسجود على بطلان مقابلة القرآن بالإنكار والاستهزاء،

---

١ – ينظر: مفاتيح الغيب:٢٨٧/٢٩ ،والتفسير البلاغى للاستفهام في القرآن الكريم:١٩٠/٤ ، وتفسير ابن عرفة:١٠٦/٤.

٢ – ينظر: جامع البيان في تفسيرالقرآن: ٥٥٨/٢٢ ، والمفردات:(سمد).

ووجوب تلقيه بالإيمان والخضوع والخشوع، أي: إذا كان الأمر كذلك فاسجدوا لله الذي أنزله واعبدوه. فالفاء واقعة في جواب شرط محذوف. ويحتمل أن يكون الأمر عاماً، ويحتمل أن يكون التفاتاً، فيكون كأنه قال: أيها المؤمنون اسجدوا شكراً على الهداية واشتغلوا بالعبادة، ولم يقل: اعبدوا الله إما لكونه معلوماً، وإما لأن العبادة في الحقيقة لا تكون إلا لله، فقال:" وَاعْبُدُوا " أي: ائتوا بالمأمور، ولا تعبدوا غير الله، لأنها ليست بعبادة.

والسجود يجوز أن يراد به الخشية . والمعنى: أمرهم بالخضوع إلى الله والكف عن تكذيب رسوله وعن إعراضهم عن القرآن ، لأن ذلك كله استخفاف بحق الله ، وكان عليهم لما دعوا إلى الله أن يتدبروا وينظروا في دلائل صدق الرسول والقرآن.

ويجوز أن يكون المراد سجود الصلاة ، فعبر بالجزء "السجود" وأراد "الصلاة" ، والأمر به كناية عن الأمر بأن يسلموا فإن الصلاة شعار الإسلام.[1]

وفي الآية عطف للعام "وَاعْبُدُوا " على الخاص "اسْجُدُوا" لبيان عظم وفضل الخاص وهو الخضوع والخشوع لله تعالى وإفراده بالعبادة وإقامة شعيرة الإسلام.

وقد اقترن السجود في الآية بالعبادة ، وجاء الأمر بالسجود في آخر الآيات ، وكأنه العلامة الفاصلة على صدق إيمان العبد وخشوعه وخضوعه لله تعالى ، وإفراده بالعبادة.

سادسا: قوله تعالى في سورة الانشقاق: " فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ" الآيتان: ٢٠,٢١.

(أ) علاقة الآيتين بسياق السورة:

السورة تتحدث عن بعض مشاهد الانقلاب الكونية ، وهي سورة هادئة الإيقاع، جليلة الإيحاء، سورة فيها لهجة التبصير المشفق الرحيم، ولكنها ذات طابع خاص. طابع الاستسلام لله. استسلام السماء واستسلام الأرض، في طواعية وخشوع ويسر، وتذكير الإنسان بأمره وبمصيره الذي هو صائر إليه عند ربه. حين ينطبع في حسه ظل الطاعة والخشوع والاستسلام لله تعالي، وتأتى هذه الآيات للتعجيب من حال هؤلاء الناس الذين لا يؤمنون بصحة البعث والقيامة، وبالنبي ﷺ وبما جاء به ، مع وجود موجبات الإيمان بذلك،

١ – ينظر: البحر المديد: ٥١٩/٥، ومفاتيح الغيب:٢٨٧/٢٩ ،والتحرير والتنوير:١٦١/٢٧.

من الأدلة الكونية القاطعة الدالة على قدرة الله على كل شيء، والمعجزات الظاهرة الدالة على صدق نبيه وصدق ما أنزل عليه فقال:" فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ..الآيات. [1]

(ب) التحليل البلاغي:

قوله:" فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ " أي: فما لكفار مكة لا يؤمنون بالنبي ﷺ وبما أنزل عليه ، وببعثهم وحشرهم بعد موتهم ، وأي شيء يمنعهم من الإيمان بعد وضوح هذه الآيات ، وبيان عظم قدرة رب الأرض والسموات، وهذا الاستفهام مستعمل في التعجيب من عدم إيمانهم وفي إنكار انتفاء إيمانهم، لأن شأن الشيء العجيب المنكر أن يسأل عنه، فاستعمال الاستفهام في معنى التعجيب والإنكار مجاز بعلاقة اللزوم، واللام للاختصاص.

والفاء لتفريع وترتيب ما بعدها على ما قبلها، من أحوال يوم القيامة وأهوالها، فيجوز أن يكون التفريع على ما ذكر من أحوال " مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ"، وأعيد عليه ضمير الجماعة لأن المراد بـ " مَنْ " الموصولة كل من تحق فيه الصلة فجرى الضمير على مدلول " مَنْ " وهو الجماعة. والمعنى: فما لهم لا يخافون أهوال يوم لقاء الله فيؤمنوا.

ويجوز أن يكون مفرعا على قوله: " يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ " ، أي إذا تحققت ذلك فكيف لا يؤمن بالبعث الذين أنكروه. وجيء بضمير الغيبة لأن المقصود من الإنكار والتعجيب خصوص المشركين من الذين شملهم لفظ الإنسان في قوله: " يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ " لأن العناية بموعظتهم أهم فالضمير التفات.

ويجوز أن يكون تفريعا على قوله: " لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ " فيكون مخصوصاً بالمشركين بحسب أنهم أهم في هذه المواعظ. والضمير أيضاً التفات.

ويجوز تفريعه على ما تضمنه القسم من الأحوال المقسم بها باعتبار تضمن القسم بها أنها دلائل على عظيم قدرة الله تعالى وتفرده بالألهية ففي ذكرها تذكرة بدلالتها على الوحدانية.[2]

---

١ – ينظر : في ظلال القرآن:٦/٣٨٦٥.

٢ – ينظر: التحرير والتنوير:٣٠/٢٣٠.

والتعبير بالمضارع فى قوله:" لاَ يُؤْمِنُونَ " يدل على شدة عنادهم وإصرارهم على كفرهم ، فكلما تجددت دعوتهم إلى الإيمان بالله واليوم الأخر لم يكن منهم إلا العناد والضلال. كما أنهم يرون الآيات البينات التي تحيط بهم من كل جانب وهي متغيرة من حالة إلي حالة وتغيرها يدل على تغيير أحوال الخلق، وهذا يدل قطعاً على صحة القول بالبعث، لأن القادر على تغيير الأحوال العلوية والسفلية من حال إلى حال ، لا بد وأن يكون قادراً، ومن كان كذلك لا محالة قادر على بعثهم بعد موتهم، إلا أنهم تعاموا عن هذه الآيات الواضحات فلم يكن لهم آذان تسمع أو قلوب تعقل.

وقوله:" وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ " إنكار وتعجيب آخر من حالهم ، فأيّ مانع لهم حال بين سجودهم وخضوعهم عند قراءة القرآن؟ والتعبيربـ"إِذَا" الشرطية يدل على مدى حرص النبي والصحابة على هدايتهم وإيمانهم، حيث كانوا يتلون عليهم الآيات البينات لعلهم يؤمنون ، وقد كان هذا حالهم من شدة حرصهم على إيمانهم فقد كان يتكرر ذلك منهم ويتجدد مرة بعد أخرى بدلالة مضارعية الصيغة في قوله:" لَا يَسْجُدُونَ "إلا أنهم صموا آذانهم وأعموا بصائرهم، فلم يكن منهم إلا الكفر والعناد.

وبناء صيغة" قُرِئَ " للمفعول تدل على أنهم لا يمتثلون لقراءة أيّ قارئ ، والمراد بـ " الْقُرْآنُ "مطلق القرآن ، فهم لا يخضعون ولا ينقادون ولا يستكينون عند سماع القرآن فالسجود مجاز عن الخضوع لأنه لازمه ، وذلك للحسد أو لتقليد آبائهم، أو لخوفهم فقدان مناصب الدنيا ومنافعها وشهواتها ولذّاتها. أو لا يصلون حيث عبر بالسجود وأراد الصلاة ، أو يكون المراد بـ " الْقُرْآنُ " الآيات التى ذكر فيها سجود التلاوة فيكون فيه مجاز مرسل ، علاقته الكلية حيث عبر بـ" الْقُرْآنُ " وأراد الآيات التي هى موضع سجود للتلاوة وتكون اللام فى القران للعهد والمراد آيات السجدة، فهؤلاء إذا استمعوا لتلك الآيات " لَا يَسْجُدُونَ " ويكون السجود هنا على حقيقته. وهذا الاستفهام يحمل في طياته الأمر وكأن الله تعالي يقول لهم آمنوا واستجيبوا لأمرى واسجدوا عند سماع آياتي. وفيه ذم لغير الساجدين ، ويوحي بمدح الساجدين ،ولم يأت المضارع منفياً " لَا يَسْجُدُونَ " إلا في هذا الموضع.

سابعا: قوله تعالى في سورة العلق:" كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ " الآيات:١٥-١٩.

(أ) علاقة الآيات بسياق السورة:

السورة تعالج موضوع الوحي وبدء نزول القرآن على النبي ﷺ، وتبين طغيان الإنسان وتمرده بسبب النعمة على أوامر ربه ، وفى ذلك تنبيه على أن هذه الأمة ستفتح لها خزائن الأرض فيطغيها الغنى كما أطغى من قبلها ، وتبين حادثة " أبي جهل" ونهيه للنبي ﷺ عن الصلاة في المسجد الحرام ، فقد روي أن النبي ﷺ كان يُصَلِّي، فَجَاءَ (أَبُو جَهْلٍ) فَقَالَ: أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا؟! فَانْصَرَفَ إليه النبي ﷺ فَزَبَرَهُ[1]، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: وَاللَّهِ! إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا بِهَا نَادٍ أَكْثَرَ مِنِّي.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَاللَّهِ لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لَأَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.[2]

(أ) التحليل البلاغي:

قوله:" كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ " ردع لأبى جهل وخسوء له عن نهيه عن عبادة الله تعالى ووعيد بأخذه بناصيته وسحبه بها إلى نار جهنم ، والسفع: هو اللطم والجذب بشدة قصد التأديب والإذلال والعقاب، ولوحظ فيه اقتدار السافع وقوته وغلبته ، ويقوى هذه الدلالة مجيئ السفع بالناصية بفعله المؤكد المسند إلى الله سبحانه ، وذلك أقصي الترهيب والوعيد لذلك المغتر المفتون الذي ينهى عبداً إذا صلى ، ولم يذكر السفع في القرآن إلا في هذا الموضع. والناصية: قصاصة الشعر في مقدمة الرأس. [3]

---

١ – أي: نهر النبي ﷺ أبا جهل وأغلظ له في القول.

٢ – أخرجه الترمذي في التفسير ، بَاب وَمِنْ سُورَةِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ (٣٣٤٩)، والنسائي في التفسير ، باب سُورَةُ الْعَلَقِ

(١١٦٢٠) . وأحمد في مسنده (١/ ٢٥٦) ، وينظر إيجاز البيان في سور القرآن:٣٠٤.

٣ – ينظرالمفردات: (سفع ، ونصا) ، والتفسير البياني للقرآن:٢/٣١.

وقوله:" كَلَّا " فيه وجوه:

أحدها: أنه ردع لأبي جهل ومنع له عن نهيه عن عبادة الله تعالى وأمره بعبادة اللات.

وثانيها: كلا لن يصل أبو جهل إلى ما يقول إنه يقتل محمدا أو يطأ عنقه، بل تلميذ محمد هو الذي يقتله ويطأ صدره.

وثالثها: قال مقاتل: كلا لا يعلم أن الله يرى وإن كان يعلم لكن إذا كان لا ينتفع بما يعلم فكأنه لا يعلم.

واللام في قوله:" لَئِنْ " موطئة للقسم، وجملة " لَنَسْفَعًا " جواب القسم، وأما جواب الشرط فمحذوف دل عليه جواب القسم. فهو كناية عن أخذه إلى العذاب، وفيه إذلال لأنهم كانوا لا يقبضون على شعر رأس أحد إلا لضربه أو جره. وأكد ذلك السفع بالباء المزيدة الداخلة على المفعول" بِالنَّاصِيَةِ " لتأكيد اللصوق. وكنى بها هاهنا عن الوجه والرأس ولعل السبب فى تخصيص السفع بها أن أبا جهل كان شديد الاهتمام بترجيل الناصية وتطييبها[1] وال في قوله:"النَّاصِيَة " للعهد أي: ناصية الذى ينهى عبدا إذا صلّى.

وقوله:" نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ " أي: كاذبة خاطئة صاحبها فهي صادر عنها الذنب من الكذب وغيره من غير تعمد، فأغلب أحوالها على غير صواب، تارة عن عمد وتارة عن غير عمد، وما ذاك إلا لسوء جبلة صاحبها حتى كاد لا يصدر عنه فعل سديد، وكأن الكافر قد بلغ فى الكذب قولاً والخطأ فعلاً إلى حيث أن كلاً من الكذب والخطأ ظهر من ناصيته فكانت الناصية جديرة بالسفع.وكان أبو جهل كاذباً على الله فى أنه لم يرسل محمداً، وكاذباً فى أنه ساحر ونحوه ، وخاطئا بما تعرض له عليه السلام بأنواع الأذية ، ووصفها بالكذب والخطأ على الإسناد المجازى. وهما في الحقيقة لصاحبها. وفيه من الحسن والجزالة ما ليس في قولك: ناصية كاذب خاطئ. مبالغة في تكذيبه في أنه لا يقدر على منع المهتدي أو إذلاله أو شيء من أذاه إلا إن أذن له صاحب الأمر كله فيما يكون سبباً لزيادة رفعته.[2]

---

١ – ينظرمفاتيح الغيب :٣٢/٢٢٤ ،والتحرير والتنوير:٣٠/٤٥٠ بتصرف.

٢ – ينظر نظم الدرر:٢٢/١٧٠ ، وروح البيان:١٠/٤٧٧.

ولما أغلظ النبي ﷺ في القول لأبي جهل وتلا عليه هذه الآيات، قال: يا محمد بمن تهددني وإني لأكثر هذا الوادي نادياً، فافتخر بجماعته الذين كانوا يأكلون حطامه، فنزل قوله:" فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ " وهو إما أن يكون على حذف مضاف، أي: أهل ناديه، أو على التجوُّز في نداء النادي لاشتماله على الناس ، فيكون فيه مجاز مرسل وعلاقته المحلية. ولا يطلق هذا الاسم على المكان إلا إذا كان القوم مجتمعين فيه فإذا تفرقوا عنه فليس بنادٍ، ويقال: النادي لمجلس القوم نهاراً، فأما مجلسهم في الليل فيسمى المسامر قال تعالى: "مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ" [1] وإضافة النادي إلى ضميره لأنه رئيسهم وهم يجتمعون إليه.

ولام الأمر في قوله:" فَلْيَدْعُ " للتعجيز لأن أبا جهل هدد النبي ﷺ بكثرة أنصاره – وهم أهل ناديه – فرد الله عليه بأن أمره بدعوة ناديه فإنه إن دعاهم ليسطوا على النبي ﷺ دعا الله ملائكة فأهلكوه كما قال:" سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ " وقد اجتمعت المصاحف العثمانية على حذف الواو من هذا الفعل خطاً، ولا موجب لحذفه من العربية لفظاً، وكأن المعنى في ذلك – والله أعلم – أن لا يظن أنهم دعوا لرفعة لهم في ذواتهم يستعان بهم بسببها لأن معنى الواو عند الربانيين العلو والرفعة، إشارة إلى أنهم لا قوة لهم إلا بالقوي العزيز، أو يقال: إن الحذف دال على تشبيه الفعل بالأمر ليدل على أن هذا الدعاء أمر لا بد من إيقاع مضمونه، ومن إجابة المدعوين إلى ما دعوا إليه، وأن ذلك كله يكون على غاية الإحكام، والاتساق بين خطه ومعناه والانتظام، لا سيما مع التأكيد بالسين، الدال على تحتم الاتحاد والتمكين، أو يكون المعنى: إنا ندعوهم بأيسر دعاء وأسهل أمر، فيكون منهم ما لا يطاق ولا يستطاع دفاعه بوجه، فكيف لو أكدنا دعوتهم وقوينا عزمتهم. "[2]

وقد اختلف اللغويون في لفظة " الزَّبَانِيَةَ "[3] وأياً ما كان أصلها فالعربية قد أطلقت الزبانية على مردة الإنس والجن، وفي المادة: زبانيا العقرب أي: قرناها ، وفيها السُّم الزعاف. ونقلت الزبانية

---

١ –المؤمنون:٦٧.

٢ – ينظر المرجع السابق نفسه ، والتحرير والتنوير:٣٠/٤٥١.

٣ – ينظر اللباب:٢٠/٤٢٣ وما بعدها.

إلى المصطلح الديني عَلَما على الملائكة والموكلين بعذاب الخاطئين في جهنم...حيث يدعوها الخالق ويكِلُ إليها أمر تعذيب هذا الضال المغتر بجاهه وقوته، المُدِلّ بناديه.

ولم تحدد الآية صنيع الزبانية ، بل تركته على إطلاقه الرهيب، لتذهب النفس فيه كل مذهب.[1]

وكرر الله علي نبيه الردع والزجر بقوله: " كَلَّا " تحقيراً لشأنه، وتثبيتاً وتأييداً لنبيه وتأكيداًللتحدي والتعجيز.

وقوله:" لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ "أي لا تترك صلاتك في المسجد الحرام ولا تخش منه. ولا تسمع لنهى هذا الغويّ، ولا تخش بأسه فهو مأخوذ بناصيته إلى جهنم بيد الزبانية، ودم على ما أنت عليه ، وواظب على سجودك غير مكترث به والسجود هنا على حقيقته أو هو مجاز عن الصلاة وعبر عن الصلاة بأفضل الأركان التي يكون فيها العبد أقرب إلى الله تعالى وهو السجود.

"وأطلقت الطاعة على الحذر الباعث على الطاعة على طريق المجاز المرسل، والمعنى: لا تخفه ولا تحذره فإنه لا يضرك. وأكد قوله:" لَا تُطِعْهُ" بجملة:" وَاسْجُدْ" اهتماماً بالصلاة.

وعطف عليه"وَاقْتَرِبْ " للتنويه على ما في الصلاة من مرضاة الله تعالى ، بحيث جعل المصلي مقترباً من الله تعالى. ووصل بين هذه الجمل" لَا تُطِعْهُ ، وَاسْجُدْ ، وَاقْتَرِبْ " للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع ، فقد اتفقت فى الإنشائية لفظاً ومعنى.

والاقتراب: افتعال من القرب، عبر بصيغة الافتعال لما فيها من معنى التكلف والتطلب، أي اجتهد في القرب إلى الله بالصلاة."[2]

وجاء التعبير بصيغة الأمر المطلق"اسْجُدْ" حيث لم يرد في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع، وجاء في نهاية الآية ، وختمت الآية وختم آخر موضع في سجود التلاوة بـ "اقْتَرِبْ" فكان الاقتراب والقربى من الله جل وعلا هو الغاية التي ما بعدها غاية التى يتمناها

١ – ينظر التفسير البياني للقرآن:٢/٣١.
٢ – ينظر التحرير والتنوير: ٣٠/٤٥٣ بتصرف.

ويرجوها كل عابد ساجد لله تعالي، وكل من أراد الاقتراب والتقرب إلى الله سبحانه فعليه بكثرة السجود له فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

*****

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من نزلت عليه أعظم الرسالات وعلى آله وصحبه وسلم ... وبعد

فقد عشت فى رحاب آيات سجود التلاوة ، أتدبرها، وأنهل من معينها الفياض، وأقف على أسرارها وإعجاز نظمها، ووجدت أنها تشتمل على كثير من الخصائص واللطائف البلاغية وكان منها ما يلي :

١-غلب من صيغ الأفعال وروداً في آيات سجود التلاوة صيغة الفعل المضارع، وقد جاءت معظمها في صيغة الغائب ، لتشمل كل غائب ملكاً، أو إنساناً، أو حيواناً، أو جماداً، ولتمنحه صفة التجدد والاستمرار في الماضي، والحاضر، والمستقبل، والتي يحملها الفعل المضارع.

٢-أسند فعل السجود لـ " من ، وما " وهما من الأسماء الموصولة المشتركة ، حيث يغلب على " من" استعمالها للعاقل ويغلب على " ما " استعمالها لغير العاقل وفى ذلك دلالة على سجود الكون كله وجميع ما فيه لله تعالي.

٣-لُحظ أن جرس كلمة "سجد" مرتبط ارتباطا وثيقا بما تؤديه من معنى ؛ فنجد أن صوت السين صوت احتكاكي يمتد معه الهواء ليتلاءم مع السرعة والخفة في الإقبال على الله، وأما صوت الجيم باحتكاكه وتذبذب الأوتار الصوتية فيه فيتناسب مع الحركة في سرعة الإقبال على الله بعد بدء الصلاة، والدال صوت شديد مجهور يتناسب مع صوت وضع أعضاء السجود السبعة على الأرض، وصفتها الشدة والجهر بارتفاع الصوت عند وضعها ناتج عن ذلك.

٤-بالنظر إلى النسبة العددية للأفعال في آيات سجود التلاوة كانت أكثر من الأسماء ،والأفعال بطبيعتها متجددة وفي ذلك إشارة وإيماء إلى كثرة قراءة القرآن ليكثر السجود لله جل وعلا.

٥-غلب مجيء آيات سجود التلاوة لتكون إغاظة للمشركين أو اقتداء بالأنبياء والمرسلين في السجود لله رب العالمين.

٦-لم تشتمل آيات سجود التلاوة على تخويف وتذكير بالعواقب، بل غالب مجيئها لمدح الساجدين تصريحاً وذم غيرهم تلويحاً أو العكس.

٧-كان ختم آخر موضع في سجود التلاوة بقوله "اقْتَرِبْ" دلالة على أن الاقتراب والقربى من الله جل وعلا هو الغاية التي ما بعدها غاية والتى يتمناها ويرجوها كل عابد ساجد لله تعالي.

٨-غلب في الأسلوب الإنشائي فى آيات سجود التلاوة خطاب المكلفين من بني آدم وذلك بأمرهم بالسجود لله سبحانه ، بينما جاء فى الأسلوب الخبري مدح من يسجد لله من الملائكة وما في السموات وما في الأرض.

٩-قلّ مجيء الفنون البديعية في آيات سجود التلاوة، فمقامها مقام هيبة وعظمة ، ولا يحتاج إلى تحسين الكلام بقدر ما يحتاج إلى التأكيد على الخضوع والانقياد لله تعالى ، والتهديد والوعيد لمن يعاند ويستكبر.

١٠-غلب مجئ السجود في آيات سجود التلاوة مجازاً عن الصلاة حيث عبر عنها بأفضل الأركان التي يكون فيها العبد أقرب ما يكون من ربه.

١١-كان للجمع بين السجود والتسبيح في أكثر من آية من آيات سجود التلاوة، دلالة على عظم وأهمية الصلاة في إذهاب كل ما يلم بالإنسان من ضيق وحزن ، فالإنسان عرضة لأحزان الطريق الذي يسلكه إلى الله تعالى، والدواء القاطع لكل ألم هو التسبيح والسجود، لقوله تعالى لنبيه ﷺ:" وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ".الحجر: ٩٨,٩٧.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم تبارك الذي أنزله

١- أساس البلاغة للزمخشري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط٣. ١٩٨٥م.

٢- إعراب القرآن وبيانه ، لمحيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى : ١٤٠٣هـ)، الناشر : دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، ط٤، ١٤١٥ هـ

٣- آل حم غافر– فصلت دراسة في أسرار البيان ، د/محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، ط١ ١٤٢٠–٢٠٠٩م.

٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، لناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ) ، لمحمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط١– ١٤١٨ هـ.

٥- آيات السجود في القرآن الكريم، رسالة ماجستير مخطوطة في كلية اللغة العربية بالقاهرة– جامعة الأزهر، وهي موجودة بالمكتبة المركزية للجامعة تحت رقم/٩٩٩٧.

٦- إيجاز البيان في سور القرآن ، لمحمد علي الصابوني ،ط٢ ، دار الصابوني ، ١٤٠٦– ١٩٨٦م.

٧- البحر المحيط في التفسير ، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ) ، تح/ صدقي محمد جميل ، الناشر: دار الفكر – بيروت ، ١٤٢٠ هـ.

٨- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، لأبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: ١٢٢٤هـ) ،تح/ أحمد عبد الله القرشي رسلان ، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، ١٤١٩ هـ

٩- بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد :٢٢٣/١،ط دار الحديث – القاهرة،١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤ م.

١٠- البناية شرح الهداية لبدر الدين العينى :٦٥٤/٢، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان ،ط١ ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠

١١- البيان والتبيين للجاحظ، تح/ عبد السلام هارون، الناشر: مكتبة الخانجى – القاهرة – الخامسة، ١٤٠٥هـ ٠ ١٩٨٥م.

١٢- تفسير ابن عباس المسمى "تنوير المقياس من تفسير ابن عباس" لأبى طاهر محمد بن يعقوب الفيروزبادى، ت: ٨١٧هـ، ط. دار الكتب العلمية – لبنان.

١٣- تفسير أبى السعود المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب العزيز للقاضى أبى السعود العمادى، ت: ٩٥١هـ، ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١٤- تفسير الإمام ابن عرفة ، لمحمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله (المتوفى: ٨٠٣هـ)، تح/ د. حسن المناعي ، الناشر: مركز البحوث بالكلية الزيتونية – تونس، ط١: ١٩٨٦ م.

١٥- التفسير البلاغى للاستفهام في القرآن الكريم ، د/ عبد العظيم المطعنى، الناشر: مكتبة وهبة بالقاهرة.

١٦- التفسير البياني للقرآن الكريم للدكتورة/عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ ، ط٧: دار المعارف – القاهرة.

١٧- التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، لسامي وديع عبد الفتاح شحادة القدومي ، الناشر: دار الوضاح، الأردن – عمان.

١٨- التفسير القرآنى للقرآن للشيخ/ عبد الكريم الخطيب، ط. دار الفكر العربى.

١٩- التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازى، ت: ٦٠٦هـ، ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط٣ – ١٤٢٠ هـ

٢٠- جامع البيان فى تفسير القرآن لابن جرير الطبرى، تح: أحمد محمد شاكر

٢١- حاشية الشهاب المسماة "عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى للقاضى شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجى، ت: ١٠٦٩هـ، ط. دار صادر – بيروت.

٢٢- الخصائص لابن جنى ،ت/ محمد على النجار، دار الكتاب العربي – بيروت.

٢٣- الدلالات القرآنية ، د/محمد حسن جبل، مطبعة التركى، طنطا ١٩٩٨م.

٢٤- دلائل الإعجاز للشيخ/ عبد القاهر الجرجانى، تح/ محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجى – القاهرة – ثالثة، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

٢٥- روح البيان ، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، المولى أبو الفداء (المتوفى: ١١٢٧هـ) ، دار الفكر – بيروت.

٢٦- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للعلامة شهاب الدين الألوسى، تح/ علي عبد الباري عطية، ط١ دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٥هـ.

٢٧- زاد المسير في علم التفسير ، لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ) ، تح/ عبد الرزاق المهدي ، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت ، ط١ – ١٤٢٢ هـ

٢٨- سنن الترمذى، تح/ إبراهيم عطوة، ط. الحلبى – القاهرة، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م وتحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، ط. المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

٢٩- سنن النسائى لأحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائى ت ٣٠٣هـ، تح/عبد الفتاح أبو غدة، طبع مكتبة المطبوعات الإسلامية – حلب – الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ – ١٩٨٦م.

٣٠- شذور الذهب فى معرفة كلام العرب لابن هشام الأنصاري، ت/ محمد محي الدين عبد الحميد، دار الأنصار للتوزيع، القاهرة، ط١٥ ،١٩٧٨م.

٣١- شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، لمحمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري، تح/ طه عبد الرءوف سعد، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة ، ط١، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

٣٢- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تح/ أحمد عبد الغفور عطار ،الناشر: دار العلم للملايين – بيروت ، ط٤ ، ١٤٠٧ هـ١٩٨٧ م

٣٣- فتح البارى لأحمد بن على بن حجر أبو الفضل العسقلانى الشافعى، ت ٨٥٢هـ،تح/محمد فؤاد عبدالباقى، ومحب الدين الخطيب – دار المعرفة، بيروت _ ١٣٧٩هـ.

٣٤- فى ظلال القرآن للشيخ/ سيد قطب، ط١٧. دار الشروق – دار الشروق، ١٤١٢ هـ.

٣٥- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للعلامة الزمخشرى، دار الكتاب العربي – بيروت ،ط٣ – ١٤٠٧ هـ.

٣٦- اللباب في علوم الكتاب،لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ) ، تح/ الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، ١٤١٩ هـ –١٩٩٨م

٣٧- لسان العرب لابن منظور، تح/ عبد الله على الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلى، ط. دار المعارف بالقاهرة.

٣٨- اللغة العربية معناها ومبناها ، د/تمام حسان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣ ١٩٧١م.

٣٩- اللغة والتفسير والتواصل ، د/ مصطفى ناصف، ط سلسلة عالم المعرفة– الكويت. ١٩٩٥م.

٤٠- المبسوط للسرخسي ،ط دار المعرفة – بيروت ١٤١٤هـ–١٩٩٣م.

٤١- مجمع الأمثال للميدانى، ت/ محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة، ١٩٥٥م.

٤٢- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تأليف: الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى، ط. دار صادر – بيروت.

٤٣- المعنى اللغوى، دراسة نظرية وتطبيقية ،د/محمد حسن جبل، ط١ ١٩٨١م،مطبعة السعادة.

٤٤- مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج ،دار الكتب العلمية، ط١ ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م

٤٥- المغني لابن قدامة ، الناشر: مكتبة القاهرة،١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م.

٤٦- المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى، تح/ محمد سيد كيلانى، ط. دار المعرفة – بيروت – لبنان.

٤٧- مقاييس اللغة لأبى الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تح/ عبد السلام محمد هارون، ط. دار إحياء الكتب العربية – الأولى، ١٣٦٨هـ.

٤٨- الموسوعة القرآنية المتخصصة ، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر،١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م.

٤٩- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للإمام البقاعى، ت: ٨٨٥هـ، لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ) ،الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٥٠- الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر، لمحمد محمد محمد سالم محيسن (المتوفى: ١٤٢٢هـ)، الناشر: دار الجيل – بيروت ، ط١، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م

******

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	المقدمة	٦٠٧
٢-	التمهيد	٦١٠
٣-	سجود التلاوة فى القرآن الكريم.	٦١٠
٤-	عدد السجدات ومحلها	٦١١
٥-	المبحث الأول : الأسلوب الخبري في آيات سجود	٦١٢
٦-	التلاوة.	٦٣٦
٧-	المبحث الثاني : الأسلوب الإنشائي في آيات سجود	٦٦١
٨-	الخاتمة.	٦٦٣
	فهرس المراجع.	٦٦٨
	فهرس الموضوعات.	